
رواية
جونسالو إم. تافاريس
ترجمة: أحمد صلاح الدين
محمد عامر
مكتبة بغداد

أورشليم

رواية

جونسالو إم. تافاريس

ترجمة

أحمد صلاح الدين

محمد عامر

2016

مصر العربية للنشر والتوزيع

العنوان : أورشليم - رواية
المؤلف : جونسالو إم. تافاريس
ترجمة : أحمد صلاح الدين – محمد عامر
الطبعة : الأولى 2016
الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع
19 ش إسلام- حمامات القبة- الزيتون- القاهرة
تليفاكس 22562268 (02) 2+
masrelarabia@hotmail.com

توزيع : مكتبة أطياف
1 شارع البستان السعيدي – متفرع من محمد صبري أبو علم
وسط البلد (عابدين) – القاهرة
محمول 01020097171 2+

رقم الإيداع : 2015/20881
I.S.B.N : 978-977-428-077-1
تصميم الغلاف : الفنان محمد سيد
خطوط العنوان : الفنان حمادة الربع



SECRETÁRIO DE ESTADO
DA CULTURA

هذا الكتاب تمت ترجمته بدعم من وزارة الثقافة البرتغالية.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

"سطع اسم جونسالو إم. تافاريس في المشهد الأدبي البرتغالي لتمتعه بخيال خصب أصيل تجاوز كل حدود الخيال التقليدي. هذا إضافة إلى لغته الخاصة، التي جمعت بين جرأة الصك وبراعة استخدام العامية، مما يدفعني للقول، ودون أي قدر من المبالغة - مع كامل الاحترام للشباب من روائيي البرتغال اليوم - أن جونسالو إم. تافاريس مرحلة يقف عندها الزمن، هناك مرحلة سبقته، وأخرى تلته ... تنبأت أنه سيحصل على نوبل خلال ثلاثين عاماً، إذا لم يكن قبل ذلك، وأنا على ثقة من نبوءتي. أسفي فقط على أنني لن أكون على قيد الحياة لأمنحه أحضان التهنئة.

جوزيه ساراماجو، الحائزعلى جائزة نوبل

"تدور حول غياب السعادة، في فراغ امتلأ مكراً بركود الثروة أو الجنون، هكذا نسج جونسالو أم. تافاريس روايته البديعة أورشليم، كتاب يستدعي فوراً شبح كافكا، سينما ألمانيا التعبيرية، وكانافا أنيلم كييفير..."

هيلينا فاسكونسيلوس

"يتسم أدب جونسالو إم. تافاريز أنه ثوري، ولا يسمح لك أن تبقى دون اكتراث. على العكس، إنه يؤلمنا ويربكنا. تافاريس بارع في صدمة القارئ. "

جوزيه كاستيلو، إبسيلون

"كتابته سريالية، مرحة، شعرية، عميقة، درامية، صادمة، قنبلة صغيرة تدفع خارج الحدود المعتادة، الأنماط السائدة."

- جيوليا لاسيني

"يوما ما، عندما يكتب التاريخ الأدبي للسنوات الأولى من هذا القرن في البرتغال، سيحتل أدب جونسالو إم. تافاريس مكانة رفيعة..."

- جوزيه ماريو سيلفا

الفصل الأول

إرنِست وميليا

1

كان إرنِست سبِنجلر وحيداً في مسكنه بالطابق العلوي، يستعد لإلقاء نفسه من النافذة المفتوحة، بينما رن الهاتف. مرة، اثنتان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، إحدى عشرة، إثنتا عشرة، ثلاثة عشرة، أربعة عشرة. رد إرنِست.

تسكن ميليا في الطابق الأول في 77 شارع مولتكى. بينما هي جالسة على مقعدٍ غير مريح، كانت تفكر في كلماتٍ أساسيةٍ في حياتها. الألم، فكرت، إنه كلمة أساسية.

خضعت لعملية جراحية، ثم أخرى، أربع عملياتٍ جراحية إجمالاً. الآن ألم - يتردد صداه بعمق في منتصف جسدها. في مرضها، رددت على نفسها أنها قيد الاختبار، طريقة تعلمها كيف تصمد أمام الألم. ربما : تجلياً لرغبتها أن تقترب من الرب القدير. لكن في الليل توصد الكنائس أبوابها.

الرابعة صباح يوم 29 مايو. ميليا عاجزة عن النوم. ألم متواصل، يأتي من معدتها - أو ربما أسفل المعدة. من أين يأتي الألم تحديداً؟ ربما من

الرحم. لا تعرف الآن سوى أنها الرابعة صباحاً وأنها لم تذق طعم النوم. لم يكن حتى بإمكانها أن تغمض عينيها خشية الموت.

نهضت. كانت قوية على نحافتها. لم تضع وقتها في تفاهات. (كانت تردد على نفسها دوماً: لا يجب أن يضيع الوقت في أمور تافهة.) أولت الأشياء عنايتها. تعلم أنه لم يتبقَ من عمرها إلا سنوات قليلة. بدأ المرض ينتشر بالفعل: سنظل معاً لبضع سنوات، لكنه سيبقى وأرحل أنا. ركزت طاقتها صوب المتبقي من عمر جسدها، موجهة - طاقتها - كالنشابة. استعدت للدوران. لا مزيد من التفاهات. اقض الوقت فيم هو ضروري - تجاهلي ما لا يفيد؛ الأمور الفارقة هي الأساسية، تلك التي تغيرك، التي تجعل كل شيءٍ مختلفاً، وتلك التي تحبطك. يجب أن يكون كل شيء هكذا - يجب أن يكون كل ما تفعله يومياً عفياً، فارقاً. نظرت ميليا لنفسها في المرآة. لازلت على قيد الحياة، لكني ارتكبت خطأً. أن أمرض فهذا يعني أنني ارتكبت خطأً. ربما خطأً شيطاني. لكن: المرض يغيرك. يجعل كل شيء مختلفاً.

لذا، في ذلك اليوم، في الرابعة صباحاً، قررت ميليا أن تغادر منزلها. ليلاً، هاجمها الألم بصور شتى - تصاعدت وتيرته بشكل تدريجي، كمشاهدة مادة كيميائية لزجة تزحف عبر منحنى، بصورة لا تكاد العين تدركها . ليس الليل كالنهار، ثمة واد يفصل بينهما.

ركزت على ألمها، هذا الذي لا تعرف له موضعاً محدداً - ثمة ألم بين معدتها ورحمها - خرجت ميليا بحثا عن كنيسة.

صادفت متشرداً أربكه سؤالها. كنيسة؟ سألها: أتعلمين كم الساعة الآن؟ ستتعرضين للسرقة. ما كان عليك الخروج بحثاً عن كنيسة، إنما

عن شرطي يعود بك لبيتك. لم خرجت بالأساس من بيتك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ وما يدريكِ لعلي أعتدي عليك، وربما أسرقك!

ابتسمت ميليا وواصلت سيرها. ألمها الملح فاق أهمية الحديث مع هذا المتشرد.

لست بحاجة للشرطة، أحتاج لكنيسة. هل أوصدت كل الكنائس أبوابها في هذه الساعة؟

لم تكن تشعر بقدميها. اتضح أن حذائها - المسطح، الرجالي - لازال طيعاً، يذهب حيث تريد قدماها. تملك العظام والعضلات إرادة مستقلة. ليس جلد الحذاء. يجب أن تلزم الأحذية الطاعة، دون أسئلة. تمتمت ميليا: نعم - عليك بالطاعة أيها الحذاء. كل الأشياء يمكن تقسيمها لصنفين: أشياءٌ تتحرك بإرادتها، وأخرى تسمع وتطيع (وكذلك البشر). الحذاء مثالٌ حي للطاعة المطلقة، وعليه، فإنه مثير لاشمئزازها.

أمر مقزز: خضوع العالم المادي للبشر. حتى الكلاب لا تخضع كما هذا الحذاء.

لكن، لم تكن هناك ثمة إمكانية للحوار بين المعسكرين ... ليست "معسكرات العدو" على أية حال، طالما يلمح هذا إلى احتمالية اندلاع الحرب بينهما، في ساحة معركة، حيث تصطف قواتهما ... كلا، ليسا بحيوانين مفترسين يتنازعان على بقعة مميزة من الأرض، ولكن أحدهما شديد السلبية في مواجهة شراسة كاملة من الآخر... قوة مبدعة ومدمرة في آن، لكنها، على أية حال، لا تكف عن الارتقاء. قالت ميليا لنفسها، بينما كانت تسير بعزم نحو كنيسة: كلا، لسنا من الصنف الذي يجلس وينتظر.

"الكنيسة مغلقة. هل لديك فكرة كم الساعة الآن؟ تقترب من الخامسة صباحاً. لم يكن عليك الخروج بأي حال. هذا حي يسوده الشر ليلاً. هذا خطر."

تملكتها رغبة بالضحك في وجه الرجل، ساخرة منه، من النوايا الطيبة، ومن كل شيء. خطر! خطر على امرأة مريضة مثلي؟ تحتضر بفعل مرض يسكنها، لم يتبق لها سوى سنة أو اثنتين. الموت يترصدها بالفعل - إنها الآن في حاجة للخطر، إلى شيء مثير، أن تشعر أن ثمة ما هو جديد. أرادت أن تخبره، ذلك الرجل؛ يبدو أميناً أو ما شابه، نعم، ثمة رغبة أغرتها أن تقول له: أنظر، لو كان الحي خطراً، إذن فهو ليس سيئاً على الاطلاق! على الأقل هناك ما يمكن أن يحدث هنا!

يطرح الخطر الأسئلة ويستجدي إجاباتٍ فورية. فكرت ميليا أن ما تحتاجه هو سؤال جيد. سؤال محدد، سؤال يدفعها نحو الوصول لجواب شافٍ. مرضي ليس ذئباً عجوزاً - لن يفر هارباً مع أول اشارة بالخطر. كلا، ليس ذئباً مذعوراً يطوف حولي. مرضي لا يمكن التخلص منه.

هذا ما قالته بالفعل: "لا أهتم بالخطر"، "فقط أردت زيارة الكنيسة."

" إنها الخامسة صباحاً. الجميع نيام. هذا الحي خطير. عليك العودة للمنزل. عودي في الصباح. نحن الآن في فترة راحة، ستجدي ما تتطلعين اليه عند عودتك صباحاً. رجاء! كلنا متعبون."

هدأت ميليا لوهلة، ثم تلوّت من فرط ألم غريب هاجمها من نفس مكان الألم المعتاد الذي يلاحقها، قرب المعدة. تبعه ألم آخر جديد أعلن عن نفسه بقوة.

قالت ميليا: "عفوا." أشعر بألمٍ شديد.

"عودي لمنزلك. الوقت متأخرٌ جداً."

تمالكت ميليا نفسها. سألت: " أتعرف كنيسة لم تغلق أبوابها؟"

ودّعها الرجل متمنياً لها ليلةً سعيدة. غادرت ميليا. بدا كل شيء موصداً. حتى باب جانبي صغير. ربما كان سجناً. شرعت ميليا في السير دون هدى.

ثمة أعمال إنشائية تجري على سطح الكنيسة - يصعد العمال نهاراً للعمل هناك. تصورت ميليا أنهم يصعدون على أطراف أصابعهم حاملين الحجارة. ابتسمت. ما المتعة في هذا، على أية حال؟ تحمل مشقة الصعود لأعلى، فقط لوضع حجر يعلو بالبناء بضع بوصات.

أمرٌ آخر استدعى ابتسامتها، واحمرار وجهها. رغبة في التبول. لكنها تعدت الخامسة صباحاً. كل الأبواب مغلقة. أخبرها بهذا ذلك الرجل الطيب (أو ربما ليس طيباً بالمرة ... ربما جل همه كان التأكد من عدم تعرض كنيسته لضرر). اعتذر لها هذا التافه بحجة إغلاق الكنيسة. فهمت ميليا كيف يفكر العالم: رجل عمله أن يعتذر للغرباء في الخامسة صباحاً أمر يبدو أحقر مما تتصور.فكرت أنه كان عليهم تكليفه بتنظيف المراحيض - ثم أسفت لاستدعاء هذه الصورة.

لم تكن أيٌّ من تلك الأفكار هي السبب وراء احمرار وجهها، بالضبط. إنما كان السبب هو امتلاء مثانتها، وعدم وجود من يراها في الجوار. خطر ببالها أنها لو كانت رجلاً ذا كبرياء، رجل لا يهتم بنظرة العالم له، لملت نحو الجدار، أخرجت عضوي، ثم تبولت حيث أنا. تورد وجهها مع إدراك رغبتها في التبول على جدار الكنيسة.

لم يكن احتياجاً لترك أثر، كما يفعل الكلب، خارج المكان الذي مُنعت من دخوله. لم يكن هذا نكاية في الكنيسة، أو تحد لها، أو اعتراض على مواقيت عملها، التي لم توافق احتياجاتها في الليل للأسف. لم يكن الأمر كذلك أبداً. ميليا قاربت الأربعين؛ لم تفعل أشياء رغبة في الاستفزاز. إنها مريضة كذلك؛ عليها بالحفاظ على ما تبقى لديها من طاقة؛ أيما تفعله كان لميليا، ميليا وحدها. قالت: أمثل نفسي. أتصرف كوحيدة أمام المرآة. وفي النهاية، الأمر كله لي. عن التحكم برغباتي.

للإيضاح: لم تكن رغبتها في التبول على جدار الكنيسة رغبة في الاستعراض. أغرتها الصورة في ذاتها: صورة الإنسان المنتصب، الإنسان في صورته البيولوجية الطبيعية - رجل يقف ممسكاً بعضوه، متبولاً على جدار الكنيسة - هذه الصورة التي طاردت ميليا، وجعلتها تغار، بصورة ما. لم تندم ميليا يوماً كونها امرأة، ولم تقبل أبداً على تصرفٍ "ذكوري"، ولكن الآن - على نحو غريب، بصواب غائب، دون ضرورة، انتابها الغضب، لأنها ليست الرجل الذي ارتسم في مخيلتها. شعرت بخيبة الأمل.

تعلم بالطبع أن التبول على جدار الكنيسة في منتصف الليل تصرفٌ سخيف. أي وضع تتخذ؟ تواجه الجدار أم تدير ظهرها له، مائلة بمؤخرتها نحوه؟ أي من الخيارات المتاحة يجبرها على الانحناء للأمام قليلاً، وكان هذا القدر "البسيط" من الانحناء أكثر ما أزعجها. إما أن ينحني المرء تماماً، حتى لو اضطر إلى الارتماء على الأرض، إذا لزم الأمر: الجبن لا يعيب - أو أن يقف بثبات. لم يكن أي الخيارين مناسبا لها: ستبول على جواربها إن حاولت. خيارها الآخر إذن أن تنصرف تاركة الجدار جافاً، شاعرة بخزي - كأنها تسلم بعجزها عن تجسيد الصورة التي تخيلتها.

قفزت لمخيلتها صورة أخرى. لو رآها أحد وهي تتبول على جدار الكنيسة، سيعتقد أن: هذه السيدة مختلة...

كان لميليا نصيب من المخاوف البسيطة. مثلاً: ترتعد - شأنها شأن الكثير من الناس - من الفئران. يتملكها هوس هيستيري غير مفهوم في كل مرة حال قطع أحد تلك الوحوش الرمادية الصغيرة طريقها. إلا أن خوفها الأعظم هو المواجهة. تحاشتها طيلة حياتها. إن لاح ملمح خلاف في الأفق، كانت لتقول لنفسها: "هؤلاء" - أياً من كانوا - "سيمزقونني إرباً..."، ثم تفر هاربة. كانت لتواجه الناس فقط حين تتأكد أنها آمنة تماماً. في طيف يد حنون. تعجز عن فهم الرجال والنساء ممن يفضلون العدوانية، حتى البدنية، على أي نوع آخر من الصراع.

ومن ثَم، كان لزاماً على ميليا ألا تبدو كشخصٍ مجنون. بالطبع، بعد ارتكاب خطأ مبدئي بقول (أنظروا لهذه المعتوهة!)، إذا شاهدها أحد مصادفة تبول على الجدار، سيعود ليدرك أنها ليست كذلك على الإطلاق، وأن ما تفعله أمر طبيعي جداً. لكن احتمالية أن يظن بها أحد، ولو لدقيقة، أنها فقدت عقلها - فوق احتمالها. فكرت: لن أسمح لأحد أن يلقبني بالمجنونة أبداً.

3

تراجعت ميليا. ما كانت لتضع نفسها في هذا الموقف، لم تكن لتسمح أن يتهمها أحد بفقدان السيطرة. ليس بالتأكيد على الجائزة البسيطة نسبياً التي أحرزتها بتبولها على جدار الكنيسة. تحركت للخلف لمسافة عشرة أمتار تجاه حديقةٍ صغيرة، ارتكنت على شجرة، تبولت.

خلا المكان من البشر. ألم المعدة على حاله. انحنت، التقطت بعض الحشائش، تنشفت، رفعت لباسها الداخلي، وجمعت شتات نفسها.

عادت لمواجهة الكنيسة الصامتة ثانية. لم يبقَ إلا ثلاث ساعات حتى طلوع الشمس، سيصير ضياء الشمس مخيفاً، بمثابة تهديد محسوس. الكنيسة مغلقة لأن الوقت لا يزال ليلاً، إلا أن ميليا لم تكن لتسمح لأحدٍ أن يراها في الصباح، هائمةً يائسة. فضعفها حين فتح الرجل باب الكنيسة كان مهيناً بما يكفي؛ الآن، بدأت ميليا في استعادة إحساسها الغريزي، لن يراها أحد إلا قوية. تعرف تلك الغريزة جيداً... يمكنها أن تقول بثقة أنها تعرفها تمام المعرفة، طالما أجبرها مرضها وقلقها تجنب الناس حين يطغى عجزها: حين يبلغ الألم مداه، كانت تفضل الوحدة. تدرك أنها عندما تبدو ضعيفة، فهذا تخلي عن كونها إنسانة. حتى مع علمها باحتمال رحيلها عن الحياة في غضون أشهر قليلة - أو عام على الأكثر - فقد اتخذت القرار. لن تتخلى عن إنسانيتها. لطالما حدثت نفسها، الكبرياء - لا تفقدي كبريائك أبداً.

في تلك الأثناء، إحساس جديد انتاب معدتها. أربكها هذا الإحساس: لم يكن ألمها، شيء آخر، حاد بنفس الدرجة، ربما أكثر حدة...

مر ببالها: كم هو مضحك أن أشعر بالجوع. مرت ساعات دون طعام. كانت على وشك الضحك. ظننت أني وحدي في الليل، لكن معدتي رافقتني .... إنها تؤنسني.

دفعها الألم الجديد للتأمل، ثمة خوف لا يمكن تفسيره. الألم الذي جاء بفعل الجوع صار أقوى فعلياً من الألم الآخر، ألم مرضها المزمن، أصل مخاوفها، الكبيرة والصغيرة. تساءلت ميليا: كيف لألمٍ نتج عن الحاجة للأكل أن يكون أكثر إيلاماً من ألمي المعتاد؟ أعلم تماماً أني سأفارق الحياة بفعل ألمي الأصغر ... هكذا أكدّ لي الأطباء.

أدركت حينها، هناك على مقربة من الكنيسة. أن ألماها يتصارعان: قاتلها، هذا الخبيث، كما أسمته، ألم المرض، والألم الطيب، على الجانب الآخر، ألم الجوع، ألم الرغبة في الأكل، ألم الحياة، الوجود، حسب قولها. وكأن معدتها، حتى في سكون الليل، هي دليل إنسانيتها الوحيد ... وعلى علاقتها الغامضة بالأشياء التي لا تعيها في هذه الحياة. أجل! لا زالت حية، يؤلمها هذا الدليل على الحياة على نحو أكبر، في هذه اللحظة، بموضوعية ملموسة، أكثر من الألم المألوف، قاتلها. كأنما، الليلة، صارت كسرة خبز أكثر أهمية من الحياة للأبد.

تلفتت ميليا قائلة: أين لي بشيءٍ آكله في هذا الوقت من الليل؟ لا ضوء. لا أحد.

4

طافت ميليا حول الكنيسة مجدداً. ما من أنوار في أي مكان بعد. وهذا بمثابة دليل إما على أن العالم قد مات، أو أنه لم يولد بعد.

مثانتها الفارغة أراحتها على نحو غير متوقع. قالت لنفسها أنها على أقل تقدير تخلصت من أحد آلامها الملحة، لتبدو هذه الليلة كأنها مباراة، بطولة شاركت فيها دون أن تدري، منافسة وضعت عراقيل صغيرة في طريقها - أو، على الأرجح، داخل جسدها - آلاماً لا ألغازاً. مشاكل واقعية، أحاجي ملموسة داخل جسدها. حسمت أحدها: فقد أفرغت مثانتها بجوار شجرة. نقص ألم. خرج بولها. وطالما تخلص الجسد من البول، قل الألم.

ولكن ما زالت كل الآلام الأخرى على حالها، وهي مدركة أن أحدهم لا حلّ له على الإطلاق. يتلخص أمره في كلمةٍ واحدةٍ بالغة الأهمية: قالها الأطباء أمامها: قالوا أنه ليس بوسعهم فعل شيء، وإنهم ينتظرون "معجزة"...

كانت صدمة. عرضت شكواها على الأطباء - تعاني ألماً، مرضاً؛ عرف الأطباء ما تعاني منه ميليا، مضاعفات عضوية - هز الأطباء أكتافهم بأسى، بينما يجيبونها (مواساة طبيب محترف لا أكثر)، دون أي إجراء، أو وصف لأي علاج: مرضها لا علاج له. جاءت بحالتها لعدد من الأطباء، لكنهم عجزوا عن علاجها. بقيت مشكلتها وسؤالها: لماذا يجب أن أموت؟

إنها خلف الكنيسة الآن. تضع يدها داخل حقيبتها لتخرج شيئاً، شيئاً صغيراً، يتذيله غبار: قطعة من الطباشير. تكتب به على لوحها. نست أنه بحوزتها. رسمت في ذلك الصباح منزلاً على لوحها الذي احتفظت به في

غرفة المعيشة. رسمت البيت الذي تمنته إن لم تمت في هذه الأثناء. تعتقد ميليا أن استمرارها على قيد الحياة في الأشهر القليلة المقبلة سيغدو كأنها قد تعيش للأبد. قالت: إن لم أمت، سأخلد. خالدة لعامين على الأكثر.

أمسكت الطباشير. تحب الرسم به. أسمتها رسوماتي الأولية.

اقتربت ميليا من ظهر الكنيسة، حاملة الطباشير في يدها اليمنى. بدا الجدار مصفراً في الليل، لم تكن ميليا على يقين من ذلك. ألوان الليل غائمة، حين لا يمحوها كلياً. لحسن حظها، قطعة الطباشير بيضاء، ناصعة؛ أدركت هذا، ابتسمت.

كتبت بسرعة على الجدار، دون أدنى تفكير، بحروف صغيرة لا تكاد ترى؛ كتبت: *الجوع*.

5

تطلعت ميليا إلى باقي الجدار ثم فكّرت: تُرى ما الذي يمكن كتابته غير ذلك على ظهر الكنيسة في الخامسة صباحاً؟

حاولت تذكر مقتبسات من كتب قرأتها تليق بهذه اللحظة، وهذا الجدار.

لكن: فاجأتها ضربات في معدتها مجدداً - إضافة إلى الثاني، الألم الجديد. خفضت يدها، ثم ألقت بقطعة الطباشير، وشرعت بالمشي، متجهة نحو شارع آخر. جائعة. تصاعد الألم على نحو لا يحتمل.

تذكرت أثناء هرولتها مستمتعة، أن ألم الجوع هو ألم الحياة. جائعة، لن أموت! مستحيل أن تموت وأنت جائع بهذا الشكل.

جعلها الجوع تشعر بأمانٍ غريب: حيث كان ألم الجوع بمثابة ضمانٌ، وعد، على الأقل في الوقت الحالي. لا يمكن أن يتسلل الألم الآخر ويقتلني طالما كان قوياً هكذا! ومع شعورها بالأمان، حاولت أن تصرف ذهنها عن الأكل. ولو تناولت شيئاً، سيزول ألم الجوع، ثم يتجدد الألم الآخر ... وذلك الذي يمكنه قتلي.

لاح ضوء في الأفق الآن، ربما صدر عن مقهى فتح أبوابه، عن يمينه كابينة تليفون. صار ألم الجوع أكثر وطأة. قالت لنفسها: ربما أحتاج تناول شيئا على وجه السرعة، وإلا سيكون الموت مصيري - ثم ضحكت لهذا التناقض الأخير. أخرجت بضع عملات معدنية في الكابينة، وأسقطت واحدة في الفتحة، ثم ضربت رقماً وانتظرت مجيب. لا أحد يجيب، أربع مرات، خمس، ست، سبع، ثماني، تسع، عشر، إحدى عشر، إثني عشر،

ثلاث عشرة، أربع عشرة مرة. ثم رفع شخص سماعة الهاتف. قالت ميليا: إرنست، أنا قرب الكنيسة. ألو؟

عندها سقطت فاقدة الوعي.

الفصل الثاني

ثيودور

1

تصفح ثيودور لتوه مجلةٍ تعرض طيتها الوسطى امرأة تنزف دماً من أنفها؛ كانت عارية، مستلقية على سرير، ساقيها منفرجتين، وقد كشفت عن فرجها متباهية. وفي صفحةٍ أخرى، يظهر وجه ذات المرأة نازفاً قدراً أكبر من الدم. وفي صفحةٍ ثالثة، تظهر المرأة نفسها، في ملابسها كاملة، بفم مفتوح، في لقطة قريبة. يمكن رؤية واحدة من أسنانها وقد أكلها السوس في آخر فمها.

عاد ثيودور صفحتين للوراء. نظر في الطية الوسطى لصورة المرأة المستلقية على الفراش كاشفة عن فرجها المفتوح. يبدو شعر عانتها الأشعث كبقعةٍ، خطيرةٍ، مرعبة. همهم بكلماتٍ، ثم تلاها بضحكة خفيفة.

نهض ثيودور متجها ناحية النافذة. أعمدة الإنارة التي تفصل بينها بضعة أمتار لا تزعج ظلام الليل. الأضواء الكثيفة تمثل عائقا في وجه الجريمة – الجريمة والخوف. ولكن يرى ثيودور، بنظرة تحليلية، أن الضوء لا يعدو كونه حقيقة علمية، ليس أكثر.

في تلك الليلة، غامره شعور يجمع بين الإثارة والحنين. قال لنفسه: مزيجٌ عاطفي خاص يفيض بالرضا.

بينما يراقب، غرقت النافذة - التي تحول بينه وبين الليل - في ضباب تناقضاته. تجذبه قوةٌ ما للخارج، نحو الجانب الآخر من الزجاج، للنزول، بحثاً عن صحبة، شعر عانة، متعة؛ هكذا حدثته نفسه، وارتسمت على وجهه ابتسامة شهوانية.

لكن - في نفس الوقت، وبتطلعه لصور المرأة التي تعرض مفاتنها، وجد ثيودور نفسه عاجزاً عن التخلص من صدى حنينٍ يخالجه. سريعاً سيصير غير قادر على رؤية ليل المدينة من خلال النافذة - لن يكون هناك سوى وجه ثيودور باسبيك: الطبيب، الباحث، ذو السمعة المتدهورة، طليق ميليا باسبيك.

العمل كحفار قبوز يعني أن ترى مستقبلك. أيضاً، ثمة شيء مريب في عمل لا تميز فيه بين الوقت الإضافي وبين ارتكاب جريمة. لكن، أن تحفر في الثالثة صباحاً - لابد وأن يكون هناك أمراً غير عادي يحدث. فكر ثيودور، مذهولاً من رؤية كل هذا النشاط.

"ماذا تفعلون؟ أتنخرون الجثث؟"

هناك رجلان يرتديان نفس الزي - يدفعك التماثل إلى التفكير في النظام، وليس الجريمة. في أيديهما مجارف وقفازات. نظرا نحوه وتأملاه.

قدم نفسه: "أنا طبيب". اسمي "د. ثيودور باسبيك".

حياه أحدهما، بيده، ثم ذكر اسمه، لكن لم يفهمه ثيودور. ثم قدم الآخر نفسه:

قال: "اسمي كراتش، نحن نعمل هنا."

رد ثيودور: "أرى هذا"، "رجلان يحملان المجارف، لابد أنهما يعملان."

قال الرجل الذي قدم نفسه باسم كراتش: "ندفن موتى الليل، أيها الطبيب."

"بدعة جديدة."

قال كراتش مغيرا نبرته: "عذراً أيها الطبيب، لا يصح تواجدك هنا."

نظر ثيودور إلى الرجل الذي قدم نفسه باسم كراتش، ثم للآخر، الذي بادله النظر دون مبالاة. لم يحرك الرجلان الجوارف منذ ظهر ثيودور. ومن المستحيل معرفة ما يفعلانه.

قال ثيودور وهو يهم بالمغادرة: "أنا في الخدمة في أي وقت، أنا طبيب بالفعل." رد كراتش بجفاء: "بالتأكيد، سنتصل بك عندما نكون على وشك الموت."

انصرف ثيودور باسبيك.

آلمته مفاصل ركبته. *درجة الحرارة في الشتاء تمدد العظام*، ذكر ثيودور نفسه، ليجمع بين خرافاته وعلمه في خاطر واحد. على بعد مائتي متر، خلفه بوابة المقابر، توقف وثنى قدمه اليمنى، ثم اليسرى. تصاعد ألم مفاصل ركبتيه.

كررها ثانية، ثنى قدماً، ثم الأخرى. ثم واصل سيره نحو وسط المدينة.

بعد حوار قصير مع *حفاري القبور المخيفين*، خطر على بال ثيودور: *الآن علينا الذهاب إلى بيت دعارة. ولما كانت زيارة المقابر علاجاً للحنين، حان الوقت لتدليل عضوي* - وارتفع صوته بالكلمة الأخيرة، وكأن عليه أن يشرح منهجه، أو ببساطة أن يتخلص من قدر ضئيل من الخجل لديه.

الفصل الثالث

هانا وثيودور وميليا

1

استغرقت هانا بضع دقائق في رسم رموشها. المرآة أعلى منها، فاضطرت للوقوف على أطراف أصابعها، بالكاد ترى شفتيها. لكنها انشغلت في رسم شفتيها بظل بنفسجي.

أمسكت هانا بأداةٍ صغيرة، وإن جاز القول، ثمينة ذات تاريخ طويل مميز. القلم البنفسجي مشغول. تبدو كجراح ماهر وهي تحرك يدها اليمنى بثبات واصرار. لم يكن اللون الذي تستخدمه - مهما كانت دقته - مجرد وسيلة لخلق حالة من الجمالي الروتيني الباهت، كلا، لأن لون هانا البنفسجي يستهدف الإثارة، ليس الإعجاب. الجمال بالنسبة لشخصية هانا أمرٌ ذو طبيعة نفعية، لا من أجل أن يعجب به الناظرون فقط، بل كانت تعتبر جمالها بمثابة تحدي، دعوة للمحاربين. لم تكن تضع البنفسجي على جفونها لتجد الحب، بل قصدت إلهام رجل لتدفعه للخروج، ولو لوقت قصير، من دائرة وحدته المعتادة، في أجازة ممتعة. إنها تضع ثقتها في هذه الجفون البنفسجية - تحديداً في أحد ملامحها ذات الأهمية - أكثر من ثقتها في تنورتها القصيرة وقميصها مفتوح الصدر. فبالنسبة لها تلك الرموش البنفسجية هي المفتاح الذي سيستدعي الزبون التالي، ذلك الرجل الذي ستقضي الليل بين أحضانه، إنها على يقين من

هذا. عندما يتعلق بالأمر بشخصية هانا، فإن مسألة المظهر الجذاب ليست مجرد كلام. فمقارنةً ببقية الغانيات، تتمتع هانا بشخصية فريدة: نظرتها هي سلاحها السري، الشيء الأكثر إثارة بها، حقيقة - خليط بين المجون الطاغي والذكاء البسيط الواضح. مظهرها كان مختلفاً، حتى عن جسدها: تشعر وكأنها ترى نفسها من الخارج عندما يمنحها رجل مالاً، عندما يعطيها موظف الاستقبال مفتاح غرفتهم .... غرفة بها الكثير من الديكورات الرومانسية تدل على أن جيران هذه الغرفة لم يشكوا يوماً من المناكحات التي لا حصر لها ولا عدد في هذه الغرفة. (بالرغم من رائحة الغرفة البشعة.)

انحنت هانا إلى الخلف قليلاً مستندةً على باطن قدميها، بعيداً عن مرآتها. وضعت مشرط التجميل جانباً، ثم التقطت حقيبتها السوداء الصغيرة. كانت ميليا تقطن في شقةٍ بالطابق الأرضي بشارع جورج لنز مع ستة نساء أخريات.

اعتادت وداعهن بقولها: "سأخرج، الساعة الآن الثالثة صباحاً، فإن لم أعد بحلول السادسة، فاعلموا أن أحدهم قتلني". ثم تضحك بينما تغلق الباب.

2

بينما يسير ثيودور باسبيك مهتدياً بأنوار الشارع، لم يشغل باله سوى ميليا، زوجته السابقة. كانت في الثامنة عشر عند لقائهم الأول. كان ثيودور، الذي لم يعد صغيراً، طبيباً حينها. جاء بها والداها لعيادته.

"ابنتنا مريضة يا دكتور"، كانت هذه هي الكلمات الأولى التي سمعها عن زوجته، الأولى والوحيدة.

3

"مريضة؟ من يقول؟"

"لم تمرض أبداً، حتى وهي طفلة صغيرة. تأتيها رؤى ... أو هكذا تطلق على ما تشاهده على أية حال."

رؤى!

"إنها ترى أشياء ... تقول إنها ترى أشياء."

قال ثيودور: لا يمكن لأحد أن يرى ما يراه آخر. بل علينا أن نعتمد كلاهما ليخبرانا يرانه.

"تقول إنها تستطيع أن ترى أرواحنا..."

"عظيم!" قال الطبيب مبهوراً. "هذه موهبة واضحة. لازلنا كأطباء نستخدم كافة أنواع الأجهزة لنفحص البشر، لكننا لا نحصل سوى على صور للكلى وما إلى ذلك - لا شيء ذو قيمة. وإن كانت ابنتكم تستطيع أن ترى أرواحنا، فإنها تفعل ما عجز عنه الطب. هذا ما نطلق عليه "بصيرة نافذة".

ضحك ثيودور وحده، ثم أردف بعد صمت قصير: "أخبروها أن تدخل، ولنرى ما بها."

دخلت. ثمانية عشر عاماً. يبدو عليها الإحباط والعصبية، لكنها جميلة. انتابت ثيودور حالة من التوتر وشرع يقلب بعض الأوراق على مكتبه.

قال ثيودور: "اجلسي"، "اسمي ثيودور باسبيك، وهذه عيادتي. سيغادر والداكِ حالاً. على الطبيب أن يرى مرضاه على انفراد."

الفصل الرابع

ثيودور وهانا وميليا

1

كتم ثيودور أنفاسه لثوانٍ معدودة، أعقبها بنفخة هواءٍ ساخن في يديه. خلت الشوارع من الناس. لا زال على بعد بضع مبان من وسط المدينة، لكنه يستشعر بالفعل، أو يستنشق، رائحة الإنسانية، روح الإنسانية، يتردد صدى حركة في الجوار - أصوات بعيدة. تقطع الصمت الممتد، الذي يحملها. هناك في مكان ما، بشر يتأهبون لقضاء وقتٍ ممتع.

على القرن القادم أن يكون أكثر جدية. وإلا سنخسر كل ما وصلنا إليه. إذا واصلنا إضاعة طاقاتنا الإبداعية على ماضٍ لا قيمة له، على عاهراتٍ وشائعات، ستأتي حيوانات أخرى - حذرة وجادة - وتسود. يتصور ثيودور، ربما بإيمان ضعيف، أن ذلك الاحتياج البسيط للتسلية يمكنه تدمير المدينة. لابد أن حيوان قادر على إبعاد نفسه عن متع فارغة سيملك تفوقاً بيولوجياً على البشر ... حينها لم يملك ثيودور غير التفكير في حاله الآن: طبيب ذو مكانة، تحظى أبحاثه بتقدير بالغ - على الأقل قبل ثلاثة أو أربعة سنوات - يجوب الشوارع الآن، بغد الثالثة فجراً، قاصداً وسط المدينة، مهووساً بصورة لا تغادر باله، تلك التي رآها للمرأة المستلقية على فراشها، والدم يقطر من أنفها، بساقيها المفتوحتين لتكشفا عن فرج تحاصره عانة شعثاء. استمر ثيودور في السير، بعزم وأصرار على المواصلة

نحو حالة العبث التام، نحو ضياع الوقت، رغم أنه أمر ممتع أيضاً، نعم، إثارة خالصة، استمتاع، وفعال على هذا النحو: فعالية سلبية، أجازة من إنسانيته، وقت فراغ كامل. إذا كان هذا حالنا - ما أنا عليه في هذه اللحظة، أركض عبر المدينة بقضيب منتصب، آملاً أن أعثر على امرأة بمنتهى السرعة - إذا كان هذا حالنا، فلسنا بأفضل حال من الجراء.

كرر: ليس أفضل من حال الجراء، ثم رأى عاهرة تقترب من بعيد، ترتدي تنورة قصيرة وقميص مفتوح الصدر، خطواتها ثابتة كخطواته - الأمر الذي بدا غريباً - فخطواتها تتوافق مع خطواته . إنها هانا.

2

اكتسبت ميليا مهارة إذلال الرجال في الثامنة عشر من عمرها. فهمت الخط الفاصل بين الإغواء والإبعاد، وعرفت كيف تتلاعب بهذه المساحة: قبضها، مدها، ثم ادعاء عدم وجودها أصلاً - لتستعرض قوتها. تستطيع إذلال من تسمح لهم بالتقرب منها ... تعرف هذا بفطرتها، لتتأهب لممارسة مواهبها المنحرفة - تجذبه إليها أولاً، ثم تدفعه عنها - أما هذا الطبيب، ففي غضون دقائق، بعد أن غادر والداها الحجرة، تفحصته من رأسه حتى قدميه... ليبدأ في فعل ما لم تتمناه وتخافه: أن يستجوبها.

قالت قبل أن يفتح دكتور ثيودور باسبيك فمه: "أعاني الفصام، لقد قرأت كتباً عن الفصام، وأعرف جيداً ما هي علتي. أعاني الفصام، مختلة. أرى أشياءً لا يراها الآخرون، أنا خطرة. هل ترغب في معالجتي؟"

3

قال ثيودور: "مرحبا!"

حينها توقفت العاهرة.

قالت: "الوقت غير مناسب الآن، سأكون بوسط المدينة خلال ساعة. اسمي هانا. سترى ما يستحق الانتظار. سأكون في شارع كليرك بورك . إذهب إلى هناك- سأكون بانتظارك.

غادرت هانا مسرعة، بينما وقف ثيودور يراقبها.

أحب تفاصيلها: عينيها، حديثها بعجرفة، اسمها، قولها أنها ستنتظره، اسم الشارع الذي اتفقا على اللقاء به بعد ساعة من الآن، كل شيء. ولكن أكثر ما أثاره كانت السرعة التي تم بها الاتفاق، تأثير كلامها وحركاتها. في ثوان، خضع ثيودور لغوايتها. عرف أين يجدها مرةً ثانية. قال لنفسه وكأنه في مسرح:- ساعة من الآن في شارع كليرك بورك.

4

"أعاني الفصام"، كررت ميليا في أول يوم قابلت فيه زوج المستقبل، دكتور ثيودور باسبيك، "أعاني بالفصام."

قال ثيودور: لستِ طبيبة.

"تدعوني أمي بالمجنونة. أتظن أنك تعرف عني أكثر ممن أعيش معهم؟"

"علينا إجراء بعض الفحوصات."

قالت: "يمكنك طرح أسئلة."

"ليس أسئلة فقط، فحصوات طبية."

"لا! أسئلة فقط."

قال ثيودور: "الأسئلة ليست بفحوصات كافية . بإمكان أي شخص طرح أسئلة."

"عليك إذا طرح الأسئلة الصحيحة."

" وما هي تلك الأسئلة؟"

"مثلا، اسئلني إن كنت ضاجعت رجلاً من قبل أم لا."

"وهل فعلتِ؟"

"لا."

"حسناً ... لقد طرحت عليكِ سؤالاً جيداً، سؤالاً صحيحاً، سؤالاً طلبت مني أن أطرحه عليكِ . هل بإمكاني طرح اسئلة؟"

-"لا."

"ما اسمكِ بالكامل؟ "

- اسمي ميليا ، لا أريد أسماءً أخرى، اسم واحد يكفيني."

"ميليا - اسم جميل."

"كل الأطباء الذين عرفوا اسمي أخبروني أن اسمي جميل."

"هذا يعني أن اسمكِ جميلٌ فعلاً."

"بل يعني أنها كذبة."

"اسمك جميلٌ، وأنت فتاة رائعة."

"اذهب للجحيم."

"هل بإمكاني طرح سؤال آخر؟"

"تفضل."

" والداكِ."

"ماذا عنهم؟"

"هل تحبينهم؟"

"أمي تنعتني بالمجنونة، لكنها محقة. قذفتها مرة بقطعة من الزجاج في وجهها؟ ما زالت آثار الجروح على وجهها . هل لاحظتهم؟"

"لا."

"بل عندها جروح. ليست قصة من وحي خيالي. أتريد أن استدعيها؟"

قال ثيودور: "كلا... فقط أجيبي على السؤال."

"اذهب للجحيم! "

"أخبرني والدالكِ أنكِ تستطيعين رؤية الأرواح."

"هذا صحيح."

"كيف تبدو الروح؟"

"تملك شعر عانة."

"أتمزحين؟"

"نعم."

"إذاً تؤمنين بالرب."

"أؤمن بكل شيءٍ تعلمته منهما قبل أن أتم السادسة. عندما كنت في السادسة كنت أعرف قصصاً إنجيلية أكثر من الحكايات الخرافية."

"فأنتِ تؤمنين بالرب إذاً."

" أؤمن بكل شيءٍ تعلمته قبل السادسة من عمري، بعدها صار كل ما يحكيانه محض كذب."

"متعاطفٌ معكي يا ميليا. أتمنى أن نتحدث مجدداً."

"اذهب للجحيم!"

5

بحث ثيودور في المكتبة عن وثائق متعلقة بمعسكرات الاعتقال، مناهجها، مواقعها في مختلف البلدان والعصور - بينما جلست ميليا بجواره، وقعت عيناها على الصور المرعبة التي كان يطالعها. لم تقل شيئاً، بل بدأت تصفِّر على أنغام لحن بسيط لتلهي نفسها. جرت بسبابة يدها اليمنى فوق عيب صغير في خشب المنضدة، وقالت لنفسها: عيب رهيب.

أمضت أيامها تتأمل مكونات الأشياء حولها. وجدت أغلب المواد مقنِعة، كالخشب مثلاً، الحجر بأنواعه والأقمشة. الإسفنج.

اكتشفت وحدها أشياء محددة في العالم المادي. مثلاً: عندما كانت في الثامنة عشر من عمرها، حينما لقبوها بالمجنونة، رغم ذلك - ورغم إيمانها أنها لن تصل إلى أي اكتشافاتٍ عظيمة - إلا أن ميليا كانت على يقين أن كل المواد في العالم لها سرعتها الخاصة، فكل مادة تتحرك بسرعة مختلفة، إما بسرعة شديدة أو ببطء كبير، وأن معدل السرعة هو ما يميز بينها.

تعتبر ميليا، أن البيض، بكل أنواعه، شيء مزعج للغاية. إنه سريع التغيير، أسوأ ما فيه، أن وجوده قائم بالأساس على أنه سيصبح شيئاً آخراً. البيض، كل البيض، به نوع من إنكار الذات المادي الملموس، لم تجد ميليا له مثيلاً في أي شيء آخر في العالم. خلق البيض لأنه يريد الاختفاء. ليتجسد في شيء آخر. هذا الإيثار المادي في الأساس إيثار أخلاقي – وبالعثور على هذا الإيثار المادي، ما من شيء آخر بدا يستحق الاسم.

الروح بخيلة. شأنها شأن كل ما هو روحاني. وماذا يمكن أن يخسره شيء غير موجود؟

أحب ثيودور باسبيك وجود ميليا بجواره. عندما تعبس، تبدو كنبات: غرس في مكان ما مصادفة، لكن يبدو أن النبات اختار موقعه بعناية كبيرة - حرصت على الحفاظ على مسافة بينها وبين ثيودور، لكن ليس في الجانب الآخر من الحجرة. ابتعدت ميليا بحيث تتجنب أي احتكاك جسدي مع ثيودور، لكي لا يصلها دفئه ببساطة. البعد عنه لمسافة مقعد واحد كان كافياً.

كانت ترصد روابطاً محددة بين الأشياء. على سبيل المثال: عند جمع البطاطس، قالت لنفسها، يصيبها دفء غير عادي، عند إخراجها من التربة، دفء يفاجئها، دفء أنثوي. إذن، إنه هذا الدفء الأنثوي، دفء حيوان قادر على حمل سلاح للدفاع عن صغاره وبيته ... هذا الدفء الذي أحسته - كما رأت في البطاطس - في القرب من ثيودور باسبيك.

كانت ميليا تدعي الشعور بالضيق. كانت تشعر بفضول قوي لإلقاء نظرة أخرى على تلك الصور البشعة.

قال ثيودور: "إنه معسكر اعتقال، هل تعرفينه؟"

ابتسمت.

تعلمت شيئين: الرؤية والاستماع. برغبتها، علمت نفسها - أو ربما علمها مرضها - اللمس. لكن حينئذ، مجدداً، قالوا لها: *لا تلمسي الناس*

هكذا. فتملكها الرعب حينها. لا يجب أن تلمسي الناس بهذه الطريقة. لم تكررها.

دخلت ميليا في حيز دفء ثيودور، كما تفعل مع أمها نادراً. في وحدتها، علمت نفسها لمس الأشياء المادية فقط - الأشياء الخرساء. لكن طريقتها في لمسها بدت بذيئة ...حال إمكانية تسمية تلاقي، مثلاً، يد بشرية ومنضدة - أو، بالتحديد، مع عيب في خشب المنضدة – فعلاً فاحشاً.

وستقول لها أمها: "ليس من اللائق أن تلمسي الأشياء هكذا."

"كيف ألمسهم إذاً؟"

"لمسة بسيطة. دون إمساك. دون تورط."

ما لم تقله لها أمها - رغم أن آخرون فعلوا - أنها تتعامل مع الأشياء كأنها تدلل حبيباً، وكأن كل شيء في العالم يثيرها. لذا كانت عبارة: "ليس من اللائق أن تلمسي الأشياء هكذا" بمثابة دعوة للاحتشام.

6

واصل ثيودور باسبيك تقليب صفحات كتابه، الذي يحتوي على صور كثيرة لجثث متراكمة فوق بعضها على سلم: جثث صغيرة، وجثث كبيرة، أخرى عارية، رجال ونساء في تلاحم يحاكي المشاهد الإباحية على نحو ساخر، محاكاة ساخرة للفحش، أو ربما، تجسيد لشكل آخر من المجون، المغاير لذلك النوع الشائع بين الأشياء العفية الحية: فحش راكد خالي من المتعة، الإثارة، إباحية الأجساد التي ستموت الرغبة فيها، أجساد لا تعكس سوى الرعب - رعب لا نهائي، مادي، فاتر - كأنما يستدرجك لتظن أن من تراهم ليسوا بشراً بالمرة، رجال، نساء، أطفال اختزلوا في جلد وعظم. إنما ترى شيئاً آخراً، متناغماً، جامداً، مادياً، مجرداً: ليس حتى بميت، ولا بقايا بشر كانوا يوماً أحياء، مفعمين بطاقة محبة أو عداء - لا، فقط مجرد أجساد، أجساد تبدو الآن وكأنها لم تكن حية يوماً: أعضاء ينتمون لجنس مختلف تماماً، جنس خبرَ فحشاً عظيماً نزعه من قلب عائلة الجنس البشري، المتمثل هنا في المكتبة من خلال وحداته النموذجية: طبيب. تضيف مهنته سحراً لهذه اللحظة الاستثنائية: رجل تحمل مسئولية إنقاذ الأجساد، منع الأمراض الناشئة من الانتشار، والأمراض الكبيرة من الاستمرار، هذا الرجل، الطبيب، ثيودور باسبيك، الجالس بقامة منتصبة على كرسيه - كما يجب وفقاً للقواعد الصحية السليمة ومقتضيات علم سلامة وفعالية الجسد البشري في بيئة العمل - ينظر مرة ومرات، في رعب (نعم هناك رعب في هذه العيون البنية) على صور الأجساد التي لا يمكن انقاذها، حيث أنها خارج حدود امكانات أدواته وتقنياته ... وفوق كل هذا، تجاوزت حماسته. وبالفعل، يبدو أنه فقد أي تعاطف إنساني مع هذه

الصور، بعيداً عن النفور ... عجز عن إجبار نفسه على البحث عن بديل لرد الفعل الإنساني ، ينتقل من صفحة لأخرى، يرى الصورة بعد الصورة، بينما الرعب في تزايد حتى يفقد تأثيره، وطأته، بشاعته.

حدث نفسه: " هناك أكثر من ألف جثة في هذه الصورة."

في التعليق: لقطة بانورامية، صورة متقنة - توشك الصور أن تنطق- مع الأخذ في الاعتبار اتساع المشهد الذي التقطته ... يا لها من مساحة كبيرة، تساءل ثيودور، بالمتر المربع ... أكثر من أربعين، أو أقل، ماذا؟ شيء وحيد مؤكد: أشار التعليق للرقم الذي يمكن للعين المجردة تقديره، بطريقة غير رقمية، ولا علمية، أو قابلة للقياس - لكن الرقم المطبوع *1000* أكثر فعالية في تلخيص مدى الرعب الهائل الذي تثيره الصورة. ألف جثة في هذه الصورة. ألف جثة ماتت جوعاً قبل أن تصل معسكرات الاعتقال. وبينما يواصل ثيودور الجلوس هناك بعينين مثبتتين على الصورة التي تحوي ألف جثة، ميليا، تلك الفتاة، التي قالت في أول لقاء لهما: أعاني الفصام، هل تريد علاجي؟ - تلك الفتاة، التي تجلس إلى جواره مباشرة، ليست ببعيدة أو قريبة تماماً، ليست واجمة أو متحمسة، تلك الفتاة، ميليا، لم تبد أي اهتمام بالصورة المرعبة، كانت تنظر للسقف.

7

أقل من عامين على لقائهما الأول - يمكننا تسميته بـ"المهني" - حيث لعب ثيودور دور الطبيب الذي يوجه الأسئلة، بينما ميليا المريض الذي يجيب، ويشعر بالإهانة. تم الزواجُ، الذي كان بمثابة مفاجأة لوالدي ميليا، وأصدقاء وعائلة ثيودور.

تم رغم أنه كان واضحاً أن ميليا ستكون مصدرا للمتاعب.

ميليا نفسها قالت لثيودور: "ستتزوج من فتاة مصابة بالفصام؟ عمل جيد!"

حاول ثيودور إقناعها مراراً وتكراراً أنها مخطئة.

"أنا الطبيب هنا. أنا من يقرر إذا ما كان الناس مرضى أو أصحاء. وفي بعض الحالات القصوى، أنا من يقرر من هو حي أم ومن فارقته الحياة. أنا من درس لسنوات؛ قرأ الكتب؛ عمل مع أساتذة متخصصين – أنا من يستطيع إذن أن يقرر الفارق بين عقل سليم وآخر معتل. أنا من يحدد إذا كانت امرأة ما سليمة أم لا."

سألت ميليا: هل تقصد أنك، على مدار كل هذه السنوات، قبل أن نلتقي، قبل أن تعلم بوجودي بالأساس، عكفت على دراسة عقلي، عقل ميليا؟ أخبرني، في أي كتاب وجدتني؟ ما الصفحات التي ذكرتني؟ هل سمي الفصل "مرض ميليا"، أم كان - بما أنك تملك كل هذه الثقة - باسم "صحة ميليا"؟ من الرائع أن شخصاً ما يعرف الكثير عن رأسي! حتى أنا لا أعرف كيف يعمل هذا الشيء، طبياً. كل ما أعرفه هو قدرته على العمل في

الظروف الحرجة. زوج المستقبل العزيز، لا أملك سوى احترام السنوات التي قضيتها في الدراسة، صدقني - أساتذتك، أدواتك، مناهجك، كتبك، أوراق التشخيص والعلاج، أحترم كل هذا، لكن، بأمانة، أنت في حاجة لتكون أكثر من مجرد طبيب لتفهم عقل إنسان آخر ... أن تكون قديساً أو نبياً. عليك أن ترى ما بطُن وما تراه أمامك. وزوجي المستقبلي طبيب، ليس نبياً أو قديساً. مجرد طبيب."

"سأجري دراسة، أسجل التواريخ والإحصائيات، أقارن الأرقام من مصادر عدة."

تساءلت ميليا مجدداً عن جدوى كل هذا المجهود وعن جدوى الاطلاع على تلك الكتب وصورها المرعبة. "إن كنت ستقضي يومك كاملاً تطالع صور جثث، فسيأتي عليك يوم تعتاد فيه على التخلي عن الناس. لا يجب أن يصبح الأطباء قدريون."

رد تيودور: "كلام فارغ!"

واصلت ميليا: "لماذا تفعل هذا إذن؟"

"كي أفهم ... ما زال الأمر غامضاً."

أرغب في تخطيط رسم بياني - رسم بياني واحد، لتلخيص، العلاقة بين التاريخ والوحشية. لرصد مسار الرعب قرناً بعد قرن، هل زاد أم تراجع. أم كان هناك قدر معين منه على مر التاريخ. وحتى لو اكتشفت فقط ثباتاً تاريخياً محدداً في درجة الرعب، لنقل خمسة قرون مثلاً، فإن تمكنت من الوصول إلى نمطٍ منتظم، سيُعد هذا اكتشافاً عظيماً. أريد بياناً لكل شيء حدث حتى يومنا هذا - لأننا نملك، على أية حال، وثائق تاريخية يمكن الوثوق بها - في معسكرات الموت أو الاعتقال، لا أهتم بالحروب – لا شأن لي بها، لا أهتم بالمعارك بين الجيوش، بغض النظر عن الضحايا. فالحرب لا تُعد صنفا خالصاً من الرعب. أدرس الحالات التي يقف فيها أحد الأطراف عاجزا دون مقدرة - أوحتى رغبة - في الحاق الضرر

بالطرف الآخر، الحالات التي - دون مبرر يذكر - سحق فيها القوي الضعيف.

"بيان الرعب هذا قد يقودنا إذن إلى اكتشاف شيء جوهري في مشكلة الوحشية الإنسانية: التركيبة الأساسية. أعني تركيبة انسانية محددة، رقمية، موضوعية - انتزعت من طبيعتنا الحيوانية، بعيداً عن العواطف والفطرة، تحولات القلب، التقلبات المزاجية - حسابية تماماً، وكمية خالصة، بل أريدها صيغة منفصلة، قائمة على نتائج بحثي. لكن: ليست صيغة تكون بمثابة ملخصاً مختزلاً لتأثير مآسي الماضي، كلا، هدفي التوصل إلى معادلة أخرى، أفضل، الصيغة التي ستسمح بتوقع المآسي، تسمح لنا بالتحرك واتخاذ إجراء استباقي، وليس الاكتفاء بالتأمل أو العويل. أسعى لإعداد صيغة تضع السبب الحقيقي وراء الشر الذي يفعله الإنسان دون سبب وجيه - ليس حتى بدافع الخوف - الشر الذي يبدو غير إنساني بالمرة، لأنه، وبشكل أكثر دقة، عصي على التفسير. أؤمن أن هذا الأمر ليس ممكناً فقط، بل عملي أيضاً. فأنا طبيب، رجل علم، كفء - عملي لا أؤمن بالخرافات والخيال. أؤمن بالبحث، الدراسة والتحليل. أؤمن بالتقديرات الحذرة التي تقود نحو تقديرات أخرى حذرة أيضاً. أؤمن بالتقدم؛ أحترم المنهجية؛ أحترم التمهل. فالبحث العلمي لا يعني اكتشاف كنز خفي في انتظارنا، إنما بإرادة شيء اليوم وتوقع حدوثه في الغد. لا يتعلق البحث العلمي بالاختراع ولا الاكتشاف - إنه نوع من المنطق، الجدل، أمر سيستغرق من عمري سنوات وسنوات، ربما حياتي كلها، وربما لن تكفي، وسيأتي أخر ليكمل ما بدأت، من حيث انتهيت. لا يسمح البحث العلمي السليم بالثغرات. أهم شيء، ألا تكون هناك ثغرات، يجب

أن يكون خطأً مستمراً ومتجانساً، ليس له علاقة بالشعر، ميليا، ولا علاقة برسم لوحة، إنه أهم من ذلك، أعمق، عمل قد يستمر لقرون، أو، نعم، يمكنك القول أنه يشبه رسم لوحة، لكنها صورة تكبر على نحو تراكمي، يوما بعد يوم، سنة بعد سنة، لوحة يبدأها جيل، ثم يواصل الجيل التالي، محاولا تحسين ألوانها، الضوء والظل بها، لوحة، بورتريه، لكنه بورتريه تاريخي، بورتريه يوضح كيف لا ننتمي نحن البشر إلى بيوتنا، آباءنا، أزواجنا وزوجاتنا، لكن، بشكل أساسي، إلى التاريخ، تاريخ الأسلاف، إلى تاريخ العالم كله. وفي طيات هذا التاريخ، هناك قسم فرعي: تاريخ الرعب.

"ميليا، علينا أن نفهم هذا. كيف ارتكبت كل هذه الأعمال الوحشية دون خوف؟"

"سأصل إلى النتيجة في الوقت المناسب، دون تسرع، دون صراخ، دون أية عواطف لا ضرورة لها. سأصل إليها بعقلانية، من خلال التفكير العميق، المنطق، المنهجية. لن يكون هناك شيء خلاق، عفوي أو مرتجل. فأنا طبيب - لدي الأدواتً، تعلمت التفكير بصورة معينة، ولدي خطة، كما قلت لك قبلاً: سأجمع كافة المستندات المتاحة بخصوص موضوعي لخلق بيان يبرز مسار الرعب على مر السنين. لا أعلم ماهية النتائج، ولكني على ثقة أني سأصل إلى نمطٍ ثابت ينتشر في منحنيات كصورة رسم القلب. أجل، ستكون النتيجة مثل دقات قلب شخص سليم، وهذا بالضبط منحنى الانتشار الذي أسعى إليه، النمط المتوقع لقلب التاريخ، الذي يدق بمعية دقات قلوب الناس التي تعيشه، تعكس رسومهما البيانية صعودها وهبوطها الخاص، لكن على أية حال: التكرار، إمكانية

التوقع، الانتظام، تاريخ الرعب؛ ثم تحديد جوهر التاريخ - هناك أصل للتاريخ، لا شيء دون أصل. كأن ترى حالة المرض أو الصحة لإنسان وقد ظهرت على الرسم البياني لجهاز رسم القلب. ولكن في هذه الحالة سأرى الإنسانية كلها في صورتها الشاملة، سأرى صحة العالم كله، أرغب في معرفة حالة الصحة أو المرض، ليس لفرد واحد، لكن للإنسانية، بأكملها؛ صحة الكل، في اكتماله؛ سلامة المجتمع الإنساني، بأكمله، من السلوك الشاذ. وبهذا البيان، سأتمكن أخيراً من استيعاب ما سعى السابقون لفهمه: فسواء كان التاريخ مريضاً أو عفياً، سواء كان مساره صحيحاً أم لا، سواء شهد تطوراً على مدار تاريخه المعملي، فإنه على الرغم من ذلك يزداد وضع العالم سوءً، تراجعاً، يطور بهمة أمراض جديدة، ضعف جديد؛ سواء كان التاريخ يحتضر أم لا ... أو على أعتاب بداية جديدة، لتاريخ آخر، في بداية لرسم قلب جديد في التاريخ الإنساني.

"مثل أب مات تاركاً لأولاده إرثاً متواضعاً – كل ما عجز عن إضاعته في حياته - أشعر براحة في الإيمان بأن تاريخنا الأول سيترك شيئاً مفيداً لمن بعدنا. ما يثير أعصابي حيال دراستي، في ذات الوقت، أكثر من احتمالية رؤية التكهنات الخاصة بالتاريخ قاتمة، أن أمراضه تسوء يوما بعد يوم، أو قرناً بعد قرن ... أكثر ما يرعبني ليست احتمالية التوصل لنتائج تؤكد أن أوقات الذروة في علاقة الرعب بالزمن في ازدياد؛ كلا، إذا كان أملنا الكبير، في الأخير، أن نرى الرعب يتلاشى مع الوقت، على نحو متماسك ومتوقع، على النحو الذي يمكننا من توقع انتهاء الرعب من العالم، تماما، بحلول عام 6000 - إذا كان هذا هو أملنا الأكبر، فإن خوفي الكبير أن القضاء على الرعب يعني القضاء على تاريخنا، مثل الخط المستو لرجل مات للتو،

لكن أن المنحنى لا يميل إلى أي من الطرفين، إنما لا يعكس شيئاً سوى الثبات، سلسلة مخيفة من الرعب على مر الزمن، وحشية متواصلة لا تترك لنا أي قدر من الأمل. على سبيل المثال: ذلك الانحراف الذي ظهر في القرون الثلاثة الأولى قبل الميلاد يكرر نفسه كل ثلاثة قرون. إنها إمكانية العودة الخالدة، هذا الملل، هو أكثر ما يرعبني. إذا كان الرعب في تراجع، سيكون أولادنا وأحفادنا نسبياً أكثر سعادة بعد مائة جيل من الآن... وإن كان الرعب في زيادة، سينتهي التاريخ على أي حال، حيث سيلتهم هذا الرعب المطلق كل شيء - وربما جاء تاريخ أفضل، أكثر أخلاقية، وجمع الأشلاء. أي من هذه الفرضيات، في جوهرها، متفائلة. ولكن إذا كان الرعب ثابتاً ... فلا أمل. لا أمل على الإطلاق. لن يتغير شيء أبداً."


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الخامس

إرنست وميليا

1

أغلق إرنست نافذة بيته. خرج مسرعاً يجري على درج السلم. فالصوت الذي حادثه على الهاتف كان صوت ميليا. ثم توقف فجأة من دون سبب ... ثمة شيء في الأمر.

إنه في الشارع بالفعل. الرابعة، ربما الخامسة صباحاً، ظلام تام. شرع في الركض. في هذه الأثناء، كان ينادي باسم ميليا.

بدت حركته عشوائية، غير متناسقة بالمرة - طريقته في الركض بدت شاذة قاصرة. إن لم يكن إرنست رجلاً بالغاً، شخص جدير بالاحترام - على أي حال، كأي رجل في الأربعين من عمره، أو شخص في اقترب من الأربعين - قد يقول أحدهم أنه لا يعرف كيف يركض. عندما تتحرك قدمه اليمنى للأمام، تنعطف جانباً مما يجعل جسمه عرضة لفقدان التوازن - الذي عالجه هو تلقائياً بدفع جذعه للأمام، ليبدو كأنه على وشك السقوط على وجهه. لكن جسد إرنست اعتاد على التكيف على مثل هذا الارتباك: دائماً ما يستعيد توازنه، ربما في اللحظات الأخيرة، بحركة جديدة للأمام من قدمه اليمنى، وحركة مماثلة مصحوبة بانعطاف جانبي لا ضرورة له.

لكن أيا كانت طريقته في الركض، فقد فعلها إرنست. خصوصاً أن الوقت كان ليلاً، وما من أحد يشاهد سيره المتقطع غير المنتظم.

كانت الشوارع خالية تماماً. صاحبت أنوار الشارع خطواته غير المتزنة على الرصيف.

ركض إرنست تجاه الكنيسة مباشرة، قرب منزله، متخذاً شارعاً لا تفصله عن وسط المدينة إلا مبان معدودة.

على بعد خطوات، رأى شيئاً متكوماً على الأرض بجوار كابينة الهاتف. تعثر من الانفعال - ضربت ساقه اليمنى المطيعة بقوة أكبر من المعتاد - لكنه نجح في الوصول إلى ذلك الشيء المتكوم، ذي القدم، الرأس. اقترب منه. إنها ميليا.

الفصل السادس

ثيودور وميليا

1

لم تمضِ سنوات ثيودور وميليا الأولى بسهولة، ليس لفارق السن بينهما - قرابة العشر سنوات. تكمن المشكلة فيما يمكن تسميته *فارق الحالة الصحية*. لم تكن صحة ثيودور جيدة فقط (كم كان قوياً، مفعماً بالحيوية!)، كان يبتغي الصحة لكل من حوله - تجاوز الأمر كونه التزام مهني، كان انتقاماً: كان يأمر مرضاه بأن يكونوا أصحاء، يحفرها بحناجرهم، بالأدوية، العمليات الجراحية، الخ. أراد - بل احتاج - أن يكون محاطاً بالصحة، كي تدعمه *وجودياً*.

بدت طاقته لا تنضب. يعمل في مستشفى حكومي في جزء من النهار، وبعد الظهر يتوجه للمكتبة الرئيسية لعمل بعض الأبحاث لمشروعه - لا زال يحاول فهم الرعب والتاريخ، ومن خلالهم، البشر. الصحة في قمة أولوياته. كان في حاجة إلى استيعاب مفهوم الصحة من منظور أشمل، وليس مجرد حالة مرضية واحدة فقط: الحالة العقلية لمدينة، على سبيل المثال، كوحدة منظمة وفعالة مكلفة بقمع العنف. استهدف بالأساس قياس سلامة عقل التاريخ ذاته.

وهكذا انقسمت حياته بين المستشفى والمكتبة: يؤدي المهام العملية والعاجلة في الصباح، محاولاً علاج الحالات الموكلة إليه (أو على الأقل تحسين فرص بقائهم) - يتصارع مع تفاصيل الحياة، إنسان متفرد وحقيقي - ثم، في فترات ما بعد الظهر، يكرس نفسه لشيء عابر، لعمل يخلو من أي تأثيرات ملموسة على حياته اليومية، أو حياة آخرين، وهذا، بطريقة ما، أخذه، ليس فقط من صباحه، لكن من القرن بأكمله، وبالتالي لبى واحدة من احتياجاته الأخرى: أن يشعر وكأنه ذو قيمة للأجيال القادمة. فنظراً لكونه طبيب، كان بيده إنقاذ حياة أبناء جيله، بالطبع، أو هؤلاء الذين صادفهم فعلاً، لكن من خلال مشروعه الفاضل، محاولاً فهم التاريخ، تطلع ثيودور لعمل المزيد - قال أنه أمر يتعلق باستئصال الموت والعناء من العالم، وليس زيادة الرفاهية، كما فعل بعض مخترعي بعض الآلات؛ كان مدفوعاً دوماً بالرغبة في إنقاذ بشر لم يقابلهم قط، كأنه لم يرغب أن يصبح طبيباً على أية حال، إنما قديساً، في الحقيقة، مثلما قالت ميليا: قديس لا تتوقف حدود قدرته عند قراءة عقل زوجته، أو فهم عقل رفاقه - أو حتى كل البشر، إجمالاً - بل قديس بصير، قادر على إدراك ماهية التاريخ، على فهم أفكاره ... أو على الأقل بيان الطريقة التي يفكر بها. لو أمكنه فعل هذا - إذا تمكن من معالجة التاريخ ككائنٍ حي يملك وعياً، لديه عقل - ولو توصل من خلال التوثيق والبحث إلى بيانات ومعادلات، ووفقت في تفسير كابوس العشرين قرن السابقة، لأنجز ثيودور ما عجز عن فعله ألف من الرجال - بين مشهور ومغمور، شرس ومسالم - ممن حاولوا من قبله: لو فعل هذا، لصار سيد التاريخ. ولذلك، انتقل ثيودور من الصغير إلى الكبير، من الخاص إلى العام، من الصباح إلى المساء،

معتمداً على خبراته كطبيب معالج للمرضى العقليين: أدرك أن أفضل طريقة لاستيعاب طريقة تفكير الناس هي إجبارهم على اتباع روتين محدد: حين تستطيع توقع فعل أحد، ستكون بدايتك للسيطرة عليه. لم تختلف المناهج التي اتبعها مع التاريخ عن هذا كثيراً: سيدرسه حتى يتمكن من رؤية أنماطه. حينئذ، سيمكنه التحكم فيه.

من ناحية أخرى، شعر ثيودور بالخوف من أكثر شيء يهمه. كيف سيتعايش مع نفسه إذا حقق نجاحاً؟ إذا نجح في الوصول إلى مرحلة في عمله تمكنه من فهم المنطق خلف معسكرات الاعتقال، إبادة آلاف من الرجال والنساء، الصغار والكبار - ثم تصنيف هذا كأمر طبيعي؟ خشي من قدرته الفذة - غالباً ما يتلقى عبارات المديح عليها - أن يفهم المرضى العقليين. موهبة النفاذ داخل عقل غريب، وفق كلام أصدقائه - طريقته في التعاطي مع المرض - قد تقوده لشيء غير محمود: فما فائدة فهمه لأمراض التاريخ... إذا كان له أن يقتحم عقل الرعب ويدخل معه في حوار عقلاني ... فما النتيجة؟

على الرغم من خوفه من عقله وما قد يأخذه إليه، إلا أن ثيودور كان مثالاً للصحة بكل المعايير البدنية، والعقلية، والروحية. تمثل هذه المعايير الثلاثة المحور الذي تركّزت حوله حياة ثيودور، أو على الأقل كانت هذه هي الصورة التي أراد عليها حياته؛ أراد دوماً أن يكون شخصاً صحيحاً. ونظراً لاعتباره الصحة مسألة كلية كان يُعتبر أكثر انفتاحاً من أغلب زملائه في العيادة، الذين اختصروا الصحة في كونها حالة تعمل فيها العضلات ليتمكن المرء من تنفيذ ما يريده ودائماً ما تكون أمور حسية. أما بالنسبة لثيودور، فكان يرى أن هذا النوع من الأشخاص "الأصحاء" ذوي الرغبات "العادية" والعضلات "العادية" التي تحملهم من مكان لآخر يفتقدون لما أسماه بـ"الحياة الطبيعية الروحية". ولكن ما الذي تستتبعه الحياة الطبيعية الروحية؟ كانت نظرية الطبيب ثيودور باسبيك أن الشخص الصحيح حقاً يقضي أغلب حياته محاولاً كطفل العثور على ما يفتقده لأنه يعيش في حالة من الفقد الدائم، ولكن هذا الإحساس لطالما كان يقترن خطئاً بالإحساس بالسرقة. أي ما يشعر به الإنسان حينما يُسرق منه شيء هام، وكأنه فقد جزءاً من روحه. قد يكون الجزء المسروق هذا روحانياً. لذا فالرجل الصحيح الطامع في أن يصل إلى الكمال يخرج باحثاً عن اللصوص وما ضاع منه على الرغم من عدم علمه بما سُرق منه، فهو لا يعرف حقاً ما شكل أو طبيعة ما سُرق منه. إنه الاكتشاف الأولي، إدراك المرء أنه تعرض للسرقة – على المستوى الروحاني – الذي يراه ثيودور الشيء الأساسي. يرى أيضاً أن الرجل الذي يتمتع بصحة جيدة حقاً يبحث عن الرب ليكون الأمر مباشر تماماً. لم يحتفظ ثيودور بأفكاره هذه عن

الرب في أحاديثه الخاصة مع زملائه، بل كان يذكر الرب في المؤتمرات أيضاً. وهو ما أصاب الكثير من الأطباء بالحيرة والحنق لأنهم يرون أن مسألة الإتيان بسيرة الرب في محفل علمي أمر غير مهني لا يليق بسياق طبي على الإطلاق، بل هو أقرب للبدعة. ومع ذلك، كان ثيودور متمسكاً بآرائه أو بديهاته، على نحو مستفز، ليضفي عليها نوعاً من الشرعية، ويصبغها بصبغة علمية.

ولكن ما الذي توصل إليه ثيودور من خلال بديهاته العلمية في النهاية؟ ما الذي كان يفتخر به ودفعه للتطور؟ يصح أن نقول أن ثيودور لخّص نتائجة في جملة "من لا يسعى وراء الرب مجنون ... والمجنون يحتاج لعلاج".

3

لم تمضِ السنوات الأولى بين ثيودور وميليا بسهولة. فعندما وضع ثيودور زوجته على معيار الصحة الثلاثي: الصحة البدنية، والعقلية، والروحية، بدت ميليا في أحسن حالاتها البدنية والروحية لأن جسمها الذي لم يخذلها قط ولم يعطبه مرض كان يسعى دوماً نحو الرب، وكان يشعر دوماً أن شيئاً ما ينقصه، شيء علمت ميليا جيداً أنها لن تجده في العالم المادي. المعيار الصحي الوحيد الذي كانت تفتقر ميليا إليه كان المعيار العقلي، وهو أمر أدركه ثيودور بحكمته من أول حوارٍ بينهما. اتضح ذلك في نفس اللحظة التي وقع فيها في حبها، وهي أيضاً نفس اللحظة التي أعلنت فيها أنها مصابة بالفصام وبدأت في إهانته. أصابها المرض العقلي في رغباتها وعقلها كما كان يقول أبناء الجيران، وفي بعض الأحيان بصوتٍ عالٍ يصل إلى مسامعها.

وبذلك، توقع ثيودور انتقالاً صعباً من حياة العزوبية إلى الحياة الزوجية. فهم عقلها جيداً وبدأ في ضبط نسقه حتى صار قادراً على توقع ردود أفعالها إلى حدٍ كبير. توقع حتى نوبات غضبها الجنونية، وإهاناتها العنيفة، وكل أنماط سلوكها غير المنطقي، وغير المفهوم، وغير المقبول، وغير الممكن. ولذلك ليس من الصحيح أن تُرجع الصعوبات التي عاناها الزوجين سوياً إلى مشكلات ميليا العقلية. فتلك المشكلات هي ذاتها التي يعانيها زوجان جديدان، وخصوصاً أن كلاً من ثيودور وميليا كانا كأغلب الناس يمتلك كلٌ منهما شخصية مختلفة. ربما كانت شخصية ميليا غريبة بعض الشيء، لكن ثيودور كان يفهمها جيداً ويعرف كيف يطوّع حياته على حياتها. حاولت هي أيضاً تطويع حياتها على حياته بصورة طبيعية لأن

زوجها كان نشطاً حيوياً لا شخص خالٍ عقله من أي أفكار. فزوجها كان شخصاً فريداً من نوعه وحيد ومنعزل عن باقي البشر... له شخصية مختلفة سواء كانت صعبة أم لا، إلا أنه كان يحاول فهم كل ما هو حوله.

الحق يُقال أن أساليب "ثيودر" العلاجية وبديهاته شبه العلمية جعلت العلاقة بينهما كعلاقة الند بالند بصورة أساسية على الرغم من صحته ومرضها. وبذلك، وبعيداً عن كون رد فعل ثيودور دفاعاً عن نفسه، وبعيداً عن كون رد فعله أمر غير مقبول، وبعيداً عن عدم قدرته على فهم الاختلافات بينهما بعد ذلك، بل نظراً لأن ميليا كانت تمثل خطراً حقيقياً داهماً على نفسها، وبعد نوباتٍ عديدة من العنف الزائد من طرفها، قرر ثيودور أخيراً في 31 ديسمبر أن يتدخل بعيداً عن عواطفه، وفي عامهما الثامن سوياً، احتجز ثيودور زوجته في الطابق الثاني من "مصحة جورج روزنبرج" ... أفضل مصحة أمراض عقلية في المدينة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السابع

هينرك وهانا

1

هناك شيئان فقط - لو كان بإمكانك تسميتهم هكذا – احتفظ بهما هينرك من الحرب: مسدس، يخفيه دائماً أسفل قميصه، داخل بنطاله؛ وشعور دائم بالخوف - لم يفارقه أبداً - محتلاً موقعاً مختلفاً في حياته، على مر السنين، مقارنة بأزمات درامية تواجه، من وقت لآخر، أجهزتنا العصبية. ولأن هذا الخوف دائماً، كان بمثابة حقيقة مادية، ملموسة، بالنسبة لهينرك، كأنف معقوف، عين ميتة، أو قدم عرجاء. لم يغادر هينرك بيته أبداً دون خوفه؛ لم يتركه لحظه، لم ينم وحده أبداً، منذ أن صاحبه هذا الخوف. حتى في لحظات نعاسه، نائماً يحلم، كأنه مسترخياً، في الوقت الذي تنكشف فيه أكثر مكونات شخصيته ضعفاً، نعم، حتى حينها، بدت المرارة مهيمنة على أفق الفوضى البادية خلف عينيه - صور وامضة، مهتزة، شروخ في الممكن، مساحات وأزمنة غريبة. إن كانت الإنسانية مجرد حالة، حالة من الأحادية، حالة تتأرجح أثناء النوم، بين التماسك والتحلل. ولكن هينرك لم يسترخ أبداً، ولم يتحلل: إنه الحل الوحيد لبقائه سالماً، بينما مرارته - التي لا تغادر عقله - لم تكن سوى كإجراء عسكري احترازي، إن كان عليك أن تفعل: حذر لا تهاون فيه، كشاويش تدريب بالجيش، لن يسمح لك أن تغفو مطلقاً... كأن المساحة الشخصية، الخاصة - النوم - لم تفلت من سطوة

القواعد الصارمة للحرب. لذا، لا ينعم هينرك بالراحة... فكان ينهض أغلب الصباحات كأنه خرج لتوه من نزالٍ حتى الموت.

من العلامات البارزة في وجهه، تلك الأكياس أسفل عينيه، مثل حيوان ليلي. كانت بارزة كجرح، عيب خلقي، أو تشوه - من الصعب التطلع إليها - تجاعيد جلدية متراكمة. نعم، تركيزها حول عينيه، لكنه لا يقتصر على مجرد وجود الجلد المجعد فقط، إنما على الكثافة كذلك - باقي جسد هينرك خالي من العيوب الظاهرة: تلك العيون، ذلك الجلد. وبقدر ما شكل هذا "المشهد" في الخلفية، ذلك البلد الصغير، محور هذا التعبير ... تماماً، فإن هناك العديد من الأمور التي حدثت لهينرك، بالطبع، بعضها - وأكثرها حضوراً، تلك التي غيرته - التصقت بحدود عينيه السفلى كأنها رواسب دهنية، وهذه البقعة، الواضحة كندبة، تعكس مدى المرارة التي عانى منها العالم وكل من فيه؛ بينما جلده المجعد، بدوره، واضح على نحو مماثل، ولو أنه كان أكثر طبيعية، لبدا كأنه بفعل زجاجة كسرها شخص ما في وجه شخص آخر خلال عراك نشب بينهما... بقعة حقيقية، بمثابة تذكار بارز. بإمكاننا أن نسجل تاريخاً لها. ولكن دعونا لا ننسب جاذبية عيني هينرك للحقائق البسيطة. فهناك أمر أكثر تعقيداً يدور فيها وحولها - ربما توليفة لكل تفاصيل حياته التعسة، تحولت عبر السنين إلى أمر أساسي، أمر مرعب، انعكاس مجسم لخوفه، خوفه الرجال الآخرين، من شخص - أي شخص يقترب منه... وعلى هذا النحو، صاروا هم أنفسهم بمثابة إنذار بالخطر. عاش هينرك حياته جلها في خوف دائم من أقرانه، ولكن في مرات عديدة، بينما يمر بهم في الشارع، كانوا يقولون (عرضاً... كأنهم يصدرون تعليمات أو يوجهون قائدي السيارات): انظروا لهذا الرجل ... له وجه قاتل.

أخفض هينرك رأسه كي لا يسمع.

بحفاظه على نظام يومي محدد يتسم بالملل، حاول هينرك الحيلولة دون إضافة "جديد" من شأنه أن يربك روتين حياته. كان يتفهم في وقت السِلم سريعاً أن هناك رابط بين الخوف والغيب؛ ومن ثَم اعتاد أن يضع حياته تحت رقابة صارمة، ليقسم ذاته لنصفين - سجين وسجّان - ليظل في أفضل وضع يمكنه من خلاله أن يراقب العالم ونفسه.

أما في منزله، فكان يتدرب على "تماثيل العرض"، في بدرومه العازل للصوت، واضعاً أهدافه على أجنابهم، ليخفيهم خلف كنبة أو خزانة قديمة، لا يكاد يترك لهم أثراً ظاهراً - قدم أو يد (تبدو في سياق هذه الرؤية الجديدة، مع كونها منفصلة عن باقي الجسد، في أهمية أي رأس أو قلب) - ويطلق هينرك الرصاص.

هناك مدرسة للأطفال بين السادسة والعاشرة على الجانب الآخر من الشارع. ليس هناك بين هؤلاء الأطفال من لم يصادف ذلك الرجل "الذي يملك وجه قاتل". صار هينرك بعبعاً في المتناول: حتى أن هؤلاء الأطفال كانوا يهددون، لو وصل شجار بينهم إلى مستوى السباب، أو تطاول أحد الفتية واعتدى بالضرب على آخر أضعف... *سأستدعيه*، كانت هذه الكلمة كافية - لتحصل على نتيجة فورية. حتى أن بعض التافهين من المدرسين هددوا باستدعاء *الرجل البعبع* حال امتنع أحد الأولاد عن الالتزام.

في نفس الوقت، كان من بين متع هينرك القليلة، أن يطل من النافذة ليشاهد الأطفال وهم يلهون، بعفوية ودون خوف. من نافذة بيته، كان

يراقب ساحة المدرسة من خلال منظار صغير، لتصير عادة أن يشاهد الأطفال خلال راحة الغداء.

أحياناً، دون أي رغبة في إطلاق النار - المسدس خال من الطلقات - يمسك هينرك بمسدسه، يقترب من النافذة، بينما منظاره في يده اليسرى، يوجه المسدس نحو أحد الأطفال، متتبعاً تحركاته لبضع ثوانٍ، ثم يتخلى عن متابعة خطى الطفل العفوية، ويخفض مسدسه ومنظاره، مسدلاً ستائر نافذته البيضاء. ثم يستأنف استعداده للخروج.

3

هانا هي المرأة الوحيدة التي زارت هينرك في شقته على الإطلاق. وبمقتضى واقع الحال، يمكن اعتبارها بمثابة رفيقة له.

اعتادت أن تترك المال الذي كسبته الليلة الماضية - من سعيها في الشوارع - في منزل رفيقها، رغم عدم وجود ما يمكن وصفه بالاتفاق بينهما، ولو حتى اتفاقاً ضمنياً؛ ليس هناك ثمة علاقة بين ما كانت تكسبه هانا في ليلة ما وبين المبلغ الذي كانت تتركه على منضدة غرفة معيشة هينرك؛ كانت تترك النقود دون تعليق، كأنها عادة، دون تفكير - تأخذ النقود من حافظتها وتتركها على المنضدة، بالطريقة التي تطفئ بها السجائر في الطفاية؛ وكأن النقود لا تعني لها شيئاً، ما من أهمية لها، شيء مهمل تركته خلفها، كأعقاب السجائر، مخلفات ليلة سابقة. ربما تبدو عبارة "هذا ما تبقى من الليلة الماضية" اعترافاً بكرم هانا - لتحمل معنيين في هذا السياق: النقود لا تعدو كونها مخلفات. لم تكن الأهم؛ شغلها الشاغل ما جرى في الليلة المعنية. ما كسبته هانا يعد أمراً ثانوياً - حافزها الأولي هو المتعة. استمتع في الليل، أما ما يأتي ليترك خلف الظهر هو: المال.

جدير بالذكر أن: المال شغل هينرك الشاغل. لم يشكر هانا قط، ولو مرة - ولم يكن على وعي أن هذا قد يبدو فجاً. أن - النقود التي تترك على المنضدة - حقيقة واقعة، منحة، حالة، يمكنه أن يعول عليها، لن تتداعى، بشكل كبير، لذا صارت، مثل خوفه، محفورة في جسده، جزءاً منه. يلتقط المبلغ في طريقه للباب، يدسه في جيب بنطاله، مثل حفنة من

قصاصات الأوراق. لم يكن واعياً به. لم يكن المال ملكه فقط، إنما صار هو والمال شيئاً واحداً.

ضبطت هانا هينرك مرتين متلبساً بمسدسه ومنظاره الصغير - ويده المرتعشة مصوبة نحو طفل. سألته مرة: *ماذا لو انطلقت الرصاصة نحو هدفها؟*

- رد هينرك مؤكداً، إننا على مسافة بعيدة.

الفصل الثامن

هانا وهينرك

1

كانت هانا على عجلة من أمرها ليلة اصطدمت بثيودور باسبيك، حيث كانت في طريقها إلى منزل هينرك. كانت قلقة.

ازداد سلوك هينرك عنفاً عن المعتاد في الأيام القليلة الأخيرة، مما يعني أن خوفه كان في حالة تصاعد. اعتاد عندما تنتابه هذه الحالة أن يمكث في البيت - ليقضي أيامه في التدريب على التصويب، كأن هناك تهديداً حقيقياً... ولذا أراد أن يكون مستعداً له.

ولكن هذه المرة كان هناك ما يضايقه بالفعل. لاحظ اختفاء نظرة الرعب من أعين أطفال الحي، مما يعني أنهم لم يعودوا يخشون جانبه - تلاشى خوفهم *منه*. أكثر من مرة، بينما كان هينرك يمر بجوار بعضهم، يسمع بوضوح قول طفل أو آخر:أنظر، *ها قد جاء الرجل*.

تحولت هذه العبارة تدريجياً إلى نوع من التهكم منه، لتبدو كعبارة سرية وفاحشة: *ها قد جاء الرجل*.

أحياناً، بعد أن يمر هينرك بجوار مجموعة من الأطفال، يبتسم، مستمعاً لعبارتهم، التي تعكس فضولاً طفولياً، كأنه نموذجاً ممثلاً لبني جنسه: أنظر، ها قد حضر *الرجل!* تماماً كعروض الأطفال، حيث يقدم

المذيع كل حيوان من مملكة الحيوانات على حدة: مرحباً بكم، ها هو النبات... ها هو الكلب، والآن - خذوا حذركم! - أخيراً وليس آخراً، ها هو *الرجل*، الرجل نفسه... ثم يدخل هينرك إلى خشبة المسرح، وسط تصفيق الأطفال. ها هو الرجل: وصل أخيراً ... إنه أنا.

ولكن هينرك كان مستوعباً. أحس بعداء الأطفال. تعني ها قد جاء الرجل أيضاً: *لست برجل على الإطلاق*... وربما: لا أود أبداً أن أصبح كهذا الرجل. ضحك هينرك، وحده، على قسوة الأطفال البريئة. فهو لا يزال رجلاً قوياً، على أية حال - لقد شارك في الحرب، قتل العديد من الأعداء، نجا من الأكمنة، عانى الجوع، وتحمل برد الليل القارس بينما لم يكن يستر جسده سوى سترة، لو أمكننا اعتبارها كافية لمساعدة أحد الرفاق. لا يزال يحمل سلاحاً، لا تنس، هناك أسفل قميصه. رأى أن قسوة الأطفال تبدو تافهة تماماً، في مثل هذه الحالات. يمكنه، في أي لحظة، أن يخرج مسدسه، ليردي أحدهم قتيلاً؛ أمر في منتهى البساطة... لهو أطفال. إذن، لماذا يتصرف هؤلاء الأطفال بهذا الغباء؟، قال هينرك متعجباً. لماذا كل هذه المخاطرة، رغم خوفهم؟

ذلك لأنه لن يقدم على ارتكاب أي حماقة ضدهم. إنه يرتعد من الخوف أيضاً، بشكل دائم، لكنه لن يعترف بذلك... لم يكن ليعرض نفسه لخطر كما فعلوا. ما فعله، أنه لم يسخر من الناس، إنما ركز على إعداد نفسه، حتى يكون جاهزاً حال تعرضه لسوء، بالتدريب؛ حتى إذا ما آن الآوان وصار ضرورياً أن يقوم برد فعل حيال موقف ما، سيصبح جاهزاً لذلك. عندما يهددني هؤلاء، لن أتهكم عليهم، ولن أرفع صوتي، بل سأتأهب للرد بحسم دون كلام. ما من أوهام في رأس هينرك بخصوص

قدرته على اللجوء للطرق القانونية في الدفاع - القانون، الدستورا - لم يكن شخصاً محترماً من الآخرين، شارك في الحرب من قبل: يعلم جيداً أن الكلمات تجدي، *لا وزن لها*. طلقة واحدة بعشرة آلاف كلمة. ومن ثَم، كان في الواقع يشعر بالأسى حيال هؤلاء الأطفال... فقط: شعور بالأسى. ثمة شيء حالم في هؤلاء الأطفال، لا ينتمي لهذا العالم، محض تشتيت للانتباه، وبالتالي فإن الرد الملائم هو الشعور بالشفقة حيالهم. لن يسعهم فهم أنني، بين لحظة وأخرى، ربما أقرر إطلاق النار، لتنتهي حياتهم...

ربما يعطونه ظهورهم، وأيديهم مرفوعة في الهواء. ما جدوى إطلاق الرصاص على عدو أعزل؟

هذا ما قاله هينرك لنفسه، ولكن على الرغم من علمه بأن قسوتهم - تجاهه، سخريتهم من عينيه، من تلك الأكياس أسفل عينيه (سخروا منها، وهو يعلم هذا، لم يكن هينرك ضريراً) - لا تعبر سوى عن براءة، جهل، سذاجة، إضافة لقدر كبير من الغفلة، إلا أنه كان يشعر بالغيظ الشديد من جرأتهم المتزايدة. منذ أيام ثلاثة، تماسك بالكاد ليمنع نفسه، في اللحظة الأخيرة، من التقاط أحد هؤلاء البلهاء - ممن يغنون *ها قد جاء الرجل!* بأعلى صوت - ومن إمساكه من قميصه ورفعه حتى يصبح في مواجهته، لتقترب الأكياس القبيحة تحت عيني هينرك من عيني الطفل تماماً، حتى لا ينسى الطفل أبداً، ثم يصرخ هينرك صرخة مدوية: *أنا لست برجل ... أنا شيءٌ آخر ... شيءٌ مختلف!*

2

شعرت هانا بالقلق على هينرك، الذي أخبرها بالأمس أن خوفه ازداد وطأة؛ لم يكن له سبباً، ولكنه شعر بأنه مهدد، وكأن أمراً سيحدث له في أي لحظة. قال أن لديه إحساس أن هناك من يطارده، في حين أنه لم يفعل شيئاً، لم يرتكب أية جرائم؛ وضعت الحرب أوزارها منذ سنين طويلة، وكان مع الجانب المنتصر. ربما عقود مرت لم يجرؤ أحد على تهديد حياته بأي شكل، لكن لازال يملك مسدساً، معه في أوقات السلم، ويتدرب على التصويب يومياً، كان متأهباً لأي شيء. لكن: يلازمه الخوف، خوف دائم، خوف يكبر كل يوم.

كانت الساعة قد جاوزت الساعة الثالثة والنصف صباحاً، عندما طرقت هانا بابه - لم يعطِها مفتاح شقته أبداً. واصلت الطرق عدة مرات، وما من مجيب. كان هينرك خارج البيت.

وقفت هناك لبضع دقائق، تتكئ على الباب ... ثم: انتابها الرعب.

شرعت في السير، وعلى الرغم من تنورتها القصيرة، الضيقة، إلا أنها ما إن عادت للشارع، أسرعت الخطى حتى وجدت نفسها تركض فعلياً. تملكها الخوف.

الفصل التاسع

المرضى العقليين

1

يتكلم جادا. خمسة عشر عاماً.

آتي وأخرج من هذا المكان باستمرار. يفتحونني مثل باب، ثم يغلقونني مجدداً. أجروا لي عمليات على مدار أحد عشر عاماً. سبعة عشر عملية جراحية. جعلوني بابا على مدار احد عشر عاما. فتحوني وأغلقوني. فتحوا باباً في رأسي كذلك.

جادا، فقط خمسة عشر عاما، لديه ندبة على رأسه.

يقول هينريتش، لا ظل لي.

الجو حار. هينريتش، تحت ظل شجرة، يدخن، عندما يبصق يفعلها بقوة فيسقط لعابه بعيداً عن الظل. يقول: أنا في منافسة مع بصقتي. لأرى مدى قدرتها على تجاوز ظل الشجرة.

يسير بعيداً عن الشجرة، داخل آشعة الشمس، لاستعادة ظله من جديد. يشير، أترى. لم أمت.

ينظر إلى قدمه ثم يبصق على يمينه.

يقول هينريتش، سيدتي، أريد ماء.

ولكن لا سيدات هنا.

تعاني من الحمى وترغب في كسر الزجاج. تقول ميليا: لا أشعر بيدي. إذا كسرت الزجاج بها، سأحس بها مجدداً.

يقول ويتولد: إن لم تشعري بروحك، اكسري بها الزجاج. ضحك.

لم تخلق الأرواح لكسر الزجاج. بل الأيدي.

تقول ميليا: لا أشعر بيدي.

يسألها كم عدد أصابع يدها. خمسة.

أترين، لا زال لديك يد كاملة.

تقول ميليا: كلا، فقدت يدي.

جذبها رجلان. فتحت ميليا يدها اليمنى عشرات المرات.

تقول ماركسارا: سأنظف الفندق.

إنه قذر، بقايا طعام ورجال. أعقاب سجائر. قالت ماركسارا: سأكنس الفندق. إنه مليء بالرجال ... وأعقاب السجائر.

الرجال يدخنون بشراهة.

تقول ماركسارا: أنظف الفندق دائماً.

حبسوني هنا كي لا تشهد أمي موتي.

تقول جوهانا أنها تتفهم.

لا يجب أن ترى أم وليدتها تموت.

تقطع جوهانا أصابع قفازها ليمكنها إعادة خياطتهم لاحقاً بخيوطٍ صوفية.

تقول ضاحكة: وأنقذ الأصابع.

لا تمتلك مقصاً. تمزق أصابع القفاز بامساكها بقوة، ونزعها بأسنانها.

تقول جوهانا: لأمي أسنان قوية.

حبسوني هنا كي لا ترى أسناني. أمي حبستني هنا.

يشاهد ماركو التلفاز طوال اليوم. من لحظة استيقظه وحتى ميعاد نومه. لا يمكن لأحد إبعاده عنه.

يقول: قد يحدث أي شيء.

لديه قبعة.

يقول أنها تؤثر على عقله. لكنه لا يرغب في التخلص منها.

قال عن القبعة: تسبب لي الهيستريا.

يقول ماسكاً قبعته، ليست ثقيلة. يمكنك ارتادؤها ولن تسقط عن رأسك.

لا يأخذ أحد القبعة. يرتديها مجدد فوق رأسه.

أبي هو من أعطاني هذه القبعة. عندما بلغت الخمسة عشر. إنها صغيرة.

يطأطئ الرجل رأسه ثم يشرع في البكاء.

ترتدي سترة عليها رقم 53 وتأكل الحلوى.

اسمي مارثا.

هي نحيلة جداً.

تقول مارثا: أنا نحيلة جداً.

تشير إلى رقم 53 على سترتها.

شعرت بالسعادة ثلاث مرات.

عندما سمحت لي أمي باللعب في الحديقة.

ثم جلبتني أمي إلى هنا. تصورتها لعبة.

العلامات الوحيدة المميزة أسفل ترقوتها هي عظام ساقيها النحيفتين.

تقول أمي أني ليس لدي جسد خلف ملابسي.

يحتفظ بخرائط مختلفة في حقيبته. خرائط للعالم، أوروبا، آسيا.

يقول ستيلجيتز: الآن نحن هنا.

كلما توقف عن المشي، يخرج الخرائط من حقيبته ويطالعها. ثم يستخدم مؤشراً ليحدد موقعه.

نحن هنا.

لا يقول أبداً: أنا هنا. يقول دوماً: نحن هنا.

نفس الروتين يومياً. اختفت حدود الدول من على الخرائط تماماً من تأثير المؤشر.

كلما رأى شخصاً جديداً، يذهب ستيجليتز إليه ثم يهمس له:

هلا أعطيتني بعض الخرائط؟

إن أخبره ذلك الشخص أنه لا يمتلك خرائط، يستشيط ستيجليتز غضباً. ثم سرعان ما يهدأ. ينظر للشخص ويبتسم.

ابتلعت مسماراً، هناك مسمار في حلقي.

يفتح ويسليز فمه. يشير إلى تجويف صغير.

يشير: المسمار هنا.

لن يدعه المسمار يغني.

عندما كنت صبياً، كنت آكل القواقع. ألتقطها وآكلها. لم يعجب هذا أبي. قال أنها تجلب سوء الحظ.

تخاف رودسا الاختناق.

تقول: كنت امرأةً ثرية.

رودسا امرأة خمسينية.

تسأل عندما يذكرون عمرها: ماذا هذا؟

يفسرون لها أن عمرها أكبر بمرات من الأسبوع الذي مر منذ آخر زيارة لشقيقها.

تقول رودسا: لا أفهم معنى خمسون عاماً.

رودسا نحيلة وتدخن كثيراً.

تقول رودسا، عندما زارني أخي آخر مرة كنت أرتدي فستاناً قصيراً حتى يرى ساقي.

جلب أخي لي سجائر.

تتحسس رودسا ما بين فخذيها ثلاث مرات لجلب الحظ.

تقول: سأنجب ثلاثة أطفال.

تضرب رودسا ما بين فخذيها ثلاث مرات بيدها اليمني.

رودسا ليس لديها أطفال.

يقول أوبربين، الذي كان متخصصاً في الرياضيات: لا يوجد شيء اسمه صفر في المائة.

سقط شعره لأنه ذهب لعاهرة.

سأظل بلا شعر حتى الصيف. هذا ما أخبروني به.

كرر: لا يوجد شيء اسمه صفر بالمائة.

وضع أوبريين يده في جيبه وأخرجها مليئة بالملح.

إذا وجدت نسبة صفر في المائة، لم يكن هذا ليوجد هنا.

يكاد يبكي. لملم شتات نفسه.

سقط شعري لأني ذهبت لعاهرة .

يقول أوبريين: كنت أستاذاً للرياضيات.

سأبقى أصلعاً حتى الصيف.

لها شعر قصير رمادي.

يمكنها أن تكون أم الجميع.

تبلغ لاراس من العمر خمسة وستون عاماً.

يقولون أن أن رأسي ليست على ما يرام، لكنها كذبة. ، تقول لاراس كان لأمي شعر قصير مثلي - ماتت لمتاعب في القلب.

يقولون أن رأسي ليست على ما يرام، لكني لن أموت لهذا السبب. المشكلة في قلبي، لا رأسي. أعتقد أني سأموت عندما يتوقف قلبي.

كان لأمي شعر قصير أيضاً.

توجه لاراس ذقنها للهواء.

أترون، يمكنني أن أغدو أم الجميع.

جانيكا سمراء تحب الطهي.

تقول جانيكا: أحب طهي الطعام.

تضع أي شيء تجده في طريقها داخل مقلاة. أحجاز، حشائش، أعقاب سجائر، قصاصات ورق.

تقول: لا يجوز أن تهدر شيئاً.

إنها في الخمسين من عمرها.

تقول: إني جائعة. لا يجب أن تهدر شيئا.

يتخلص بعض الناس من أعقاب سجائرهم مباشرة في سلة المهملات التي تحملها ذهاباً وإياباً.

تقول: لقد جعت. أحب طهي الطعام.

باولا عاشقة.

تقول باولا: قابلت رجلاً، تبدأ في الضحك وترفع تنورتها.

باولا امرأة أربعينية، رودي، حبيبها، في الثانية والثلاثون.

تقول باولا: قابلته هنا.

هنا. أشارت باولا إلى الردهة المؤدية لغرفهم.

تقول باولا: رودي مجنون.

سأضفر شعري ليراني جميلة.

لكنه مجنون، يضحك طوال الوقت.

تقول باولا: أعلم أنه لا يجب أن أضفر شعري لأحد يضحك طيلة الوقت. لكني أعلم أيضاً أني لست جميلة.

تعصر فانا قضيب ماركسو من خلال سرواله.

تقول فانا: يملك قضيباً ضخماً.

أكبر قضيب هنا. رأيتهم جميعاً هنا.

تقول فانا: في أحد الأيام، كانوا بالحمام، فتحت الباب ورأيتهم جميعاً.

قضيب ماركسو هو الأضخم.

ماركسو مستنداً على شجرة. يدخن سيجارة. كلما تحسست فانا قضيبه يتشتت ذهنه للحظه، لكن دون ومبالاة.

كل ما فعله مارسكو هو التدخين.

تقول ميليا: المكان هنا قذر.

لا يحممونني أبدا.

ترفع ميليا تنورتها باستمرار. تكشف عورتها للجميع.

تعيد ميليا بإصرار: المكان هنا قذر. قذر، لكن هناك حديقة.

أعلم أنه من العيب أن أرفع تنورتي، ولكني أحب كشف عورتي للناس. اعتدت أن أكون نظيفة، ولكن هنا، المكان قذر.

أحضروني إلى هنا. زوجي دكتور ثيودور باسبيك. شخص ذو أهمية. يقول أني أرى الأرواح.

تشير ميليا تجاه الحديقة. المكان هنا قذر. تتساءل: تُرى لمَ كلفوا أنفسهم بعمل حديقة هنا؟

تقول ميليا: لا يحممونا هنا، يشعرون بالقرف من فكرة تنظيف عورتي.

لدى ويسليز ندبة في رأسه.

يقول: أجروا لي عملية جراحية في رأسي.

نزعوا عقلي.

يقولون أني غبي، لا أفهم.

إني متعب، لا أستطيع التركيز.

يقول ويسليز: أحتاج للنوم كثيراً.

إرنست. الكل يسخر من طريقة مشيه.

اسمي إرنست. إرنست سبنجلر.

أحب المكان هنا.

الفصل العاشر

كاس

1

حاول الغلام النوم على بطنه، لكنه فشل. استيقظ، في إصرار، ثم توقف، جلس. تداعى على الفراش مجدداً. حاول كاس باسبيك الاعتياد على وضعية جسمه المرهقة، لكن من دون فائدة أيضاً. وعندما وقف على قدميه، رأى نفسه في المرآة.

قدماه نحيفتان للغاية ... وبصورة خطيرة كذلك. لم يكن كاس لائقاً جسدياً بالصورة التي تؤهله للقبول لأداء الخدمة العسكرية. المهم أنه استيقظ، ولكن تلك اللحظات الأولى بين الغفوة والاستيقاظ تركت عقله غائماً بسبب كوابيسه ... غير أن حزنه جعله مكفهراً. أشعل عود ثقاب يضيء به طريقه وسط عتمة الليل الذي تأكد أنه لم يتحول إلى نهارٍ بعد. ثم نظر إلى ركبتيه اللتين تقولان بأن ما أسفلها من قدمين لن تتحسن حالتهما على الإطلاق. قدمان تشبهان في الحقيقة عودي ثقاب تركتا كاس غير قادر على الركض إطلاقاً، وبالتالي لم تكن لديه القدرة على مطاردة أي شخص، ولا حتى الهروب من مطاردة أي شخص. أخبره الأطباء أنه يعاني من ضمور خلقي عام في قدميه... أو شيء من هذا القبيل. كما لو أن جسمه قد أخذ قراراً بمنعه من الحركة. هل تلك الإصابة مجرد تكاسل من جسده؟ أو مسألة منطقية مفهومة؟ كان يقول لنفسه: لا تنسى أنك

مازلت حياً، وكل الأماكن التي تريد الذهاب إليها هي نفسها التي ذهبت إليها من قبل ... فلم الضيق؟

ثيودور باسبيك - والده - قال له :

- بعض الإعاقات لا تعدو كونها استجابة الطبيعة لرغباتنا الأكثر سرية.

عاد كاس إلى فراشه من جديد ممسكاً بساعته. تخيل أن الساعة ثقب باب سحري ينظر من خلاله ليرى الوقت كيف يمضي. اقترب بعينه من الساعة متخيلاً ماذا لو كان هناك شيء آخر على الناحية الأخرى، شيء آخر غير الساعات والدقائق التي يعدها الوقت. اقترب بعينه من زجاج الساعة الذي يحمي تلك العقارب التي تصنع الزمن، وتخيل لو أن للساعة دنيا ميكانيكية منفصلة، وأن هناك إله منتقم يحكم الوقت ويسلط من خلاله الكوارث، فبمجرد رمشة عين واحدة منه لتلك الساعات والدقائق والثواني يستطيع أن يفرض حالة من الفوضى على روتين أيامنا.

ابتعد بعينيه عن الساعة التي لازالت عقاربها تعمل تحت حماية ذلك الغطاء الزجاجي الغبي. قام كاس من فراشه مجدداً، ثم فتح الباب المؤدي إلى الردهة. كان النور مضاءً في غرفة المعيشة من دون أن يكون فيها أحد. لاحظ كاس أن باب غرفة والده مغلق.

أقران كاس كانوا مختلفين عنه، فكان يشعر بالوحدة إلى أبعد صورة ترتسم في خياله. لم تكن تلك الوحدة بسبب قدميه اللتان تميزتا بالنحافة الغريبة المخيفة مقارنةً ببقية أعضاء جسمه على الأقل، أو حتى طريقة سيره الغريبة بسبب عدم اتزان جسمه في وضعية صحيحة، ولكن السبب

وراء عزلته كان اهتماماته الشخصية التي رسمت هوة كبيرة بينه وبين من هم في نفس سنه، سواء كانوا أولاد أو بنات.

شمّ رائحة شيءٍ ما، فتوجه إلى المطبخ، ولكن لم يجد شيئاً إلا طبقين اثنين متسخين.

وبالإضافة إلى إعاقته الجسدية، جعل منه كلامه أضحوكة لمن حوله ... أكثر من قدميه حتى. بإمكان كاس الوقوف دون السير، الوقوف فقط، أو حتى الجلوس مع إخفاء قدميه عن الأنظار، ولكن هيهات أن يلتزم الصمت وسط مجموعة، لا يمكن الصمت للأبد، هذا مؤشر خضوع للمجموع، الصمت الطويل مستفز كذلك، لأنه وإن دلّ على شيء فإنما يدل على ميل بسيط، لكنه مؤكد، نحو الثورة - ربما لن تتعدى حدودها غرفة صغيرة، ونصف دستة من الرفاق، عدد قليل وتافه، لكنها ثورة على أية حال: رغبة في إيقاف مسيرة التاريخ. ومن ثَم، كان لزاماً على كاس أن يتحدث ولو مرة كل برهة، ولكن عندما كان يتكلم كانت الكلمات تخرج تائهة. بعض الكلمات تخرج مبتورة، غير خاضعة لتحكمه، بينما كلمات أخرى لم تكن تخرج إلا بصعوبة، تخرج متأخرة بعض الشيء وإن كان خروجها بعد ذلك غير مؤثر. كلماته كانت كقاربٍ مهترئ تضربه العواصف من كل اتجاه. كان والده يخبره: تمسّك بجملتك التي تقولها... امسك بها وكأنها مجداف قاربك ... حافظ عليها بأغلى ما تملك ... ولا تجعلها تخرج عن طوعك.

ولكن كاس لم يقدر على ذلك.

يبدو كاس بصحة جيدة في الصور الفوتوغرافية. كان يعلم تمام العلم بأن هناك قريب بعيد له من عائلة باسبيك يعيش في النصف الآخر من العالم ويتلقى الأخبار من والده عبر البريد فقط لا يعلم شيئاً عن كونه طفل غير عادي. كان ثيودور يختار الصور التي يرسلها للناس، ولم يشر في أي خطاب عن الإعاقة التي أصابت ابنه. وبالتالي، فإن تلك الصور كان تؤجج من دون شك سوء الفهم الذي تعرضه الصور. فالصور تخفي قدمي كاس النحيفتين التي تبرز العظام منهما، هذا بالإضافة إلى عدم قدرته على الحديث بصورة طبيعية. وبالتالي، فإن ما يراه الناس في الصور هو ما يصدقوه. ولهذا السبب - وربما لبعض أسبابٍ أخرى كذلك - اعتاد كاس ممارسة هواية غير متوقعة نمت بداخله أثناء دراسته. وهنا أيضاً لم يكن متميزاً في هوايته، حتى في مدرسته "الخاصة"، بل كان مشوشاً وسط التقدير والعرفان بجميل والده ومجهوداته الجبارة ودعمه الكبير، وبذلك صار كاس خلف أقرانه من نفس المرحلة العمرية بسنة واحدة فقط. الهواية التي اتخذها كاس خلال الدراسة كانت التصوير، الذي صار بعد ذلك أكثر الأمور إثارة بالنسبة له، وذلك لأن التصوير كان يضم كل أمور الحياة التي وجدها مريحة بالنسبة له، مثل العمل بواسطة يده. فكاس كان ماهراً في استخدام يده، حتى أنه كان يتلقى احتراماً يحسده عليه أقرانه، ومن ثَم كان يحافظ على هدوءه لوقتٍ طويل أكثر من اللازم، ربما لأنه وجد نفسه قادر على التخلص من أي مناقشة من دون أي عواقب. وأخيراً كانت تلك الصور التي يخلقها أو يلتقطها سبيلاً للتعبير عن نفسه بشرط أن يبقى هو خفياً عن الناس. كانت وسيلة لضمان بقائه مع الناس من دون التعليق على

قدمه. فالناس لم يستهزئوا به عندما كان يلتقط الصور لأنه كان خلف عدسة. وبذلك صار كاس غلاماً يستطيع منافسة أي شخص بنفس المستوى، وصار شخص تستطيع أن تجري حواراً معه.

أما بالنسبة لجوانب حياته الأخرى، فالأمر الأكثر تميزاً بالنسبة له هو ذلك الحوار الذي كان جزء منه أثناء تواجده بالمدرسة يوماً ما. حيث تبادل بعض الشتائم مع أحد أقرانه الأصحاء نسبياً، وبعدما احتدم الحوار بينهما اضطرا للاشتباك البدني وإلا ظهرا بصورة الجبناء. وصلا لتلك المرحلة عندما أصبح الاشتباك أمر حتمي لا مفر منه ... فجأة توقف الآخر ، وكأنه تذكر شيء كان خفياً عليه طوال النهار. تراجع الآخر وانسحب (في ظروف أخرى كان هذا الآخر ليوصم إلى نهاية العام بأنه جبان) ... قائلاً: لا أستطيع التشاجر معك.

كان كاس يتمتع بقوة جسدية في النصف العلوي من جسمه، شأنه في ذلك شأن أقرانه. لكن مشكلته الأساسية قدماه اللتان لا تساعداه، وخصوصاً في مشاجرات ملعب المدرسة المعتادة بين التلاميذ... سواء كان "حالة خاصة" أو لا. لن يتحمل كاس لمسة واحدة في قدمه، فيسقط على الأرض فوراً، وبذلك ينتهي الشجار في ثوانٍ معدودة. وبالتالي، لم يكن مجدي بالنسبة لكاس أن يسدد اللكمات، لأن مجرد لمسة واحدة لقدمه ستنهي النزال، هو لا يمتلك قدمين أساساً.

"لا أستطيع التشاجر معك."

كانت هذه هي أكثر جملة مهينة سمعها كاس في حياته.

كان هناك شيء غريب في الأرق الذي أصاب كاس تلك الليلة. أعلنت عقارب الساعة الأخرى المعلقة على جدار المطبخ عن الدقيقة الخمسين بعد الثالثة فجراً. لم تكن تلك الغرابة مرتبطة باستيقاظه، استيقظ بالفعل عدة مرات ليلتها. لكن الغريب كان ذلك الصمت غير الطبيعي الذي خيّم على المنزل ... الأجواء ساكنة أكثر من المعتاد.

أزاح الستارة جانباً ونظر خارجاً من نافذةٍ قريبة تطل على شارعٍ صامتٍ خالٍ من المارة. كان المشهد متوقعاً؛ فشقة ثيودور باسبيك تقع في أحد أفضل الأحياء في المدينة - على مسافة معقولة من منطقة التجارة المركزية - وبالطبع لم يكن هناك أي نشاط في هذا الوقت. ولكن المشكلة لم تكن بالخارج؛ فالصمت الزائد عن العادة الذي أيقظ كاس من نومه لم يكن مصدره الشارع... بل البيت نفسه.

خرج من المطبخ متوجهاً صوب غرفة والده التي مال بأذنه على بابها، لا شيء، ولا أي صوت. تشجّع حتى يفتح الباب، الغرفة خالية، لقد خرج ثيودور.

تسمّر كاس ثوانٍ معدودة من صدمته؛ كأنه سمع للتو خبراً سيئاً، كأنه مضطر لأخذ نفس سريع قبل أن يسمح للخوف بأن ينتابه. ولكن تسمره لم يدم طويلاً. عاد إلى غرفته وارتدى ملابسه، وقرر الخروج للبحث عن والده.

أكثر ما شعر به حينها هو الغضب من والده الطبيب والأب في نفس الوقت، فليس من المفترض أن يتركه ثيودور وحيداً بعد منتصف الليل. إنه ليس أكثر من مجرد فعلٍ جبان، قال لنفسه.

الفصل الحادي عشر

هينرك

1

لم يكترث هينرك كثيراً للأثر الذي تركته أهوال الحرب على رفقاء السلاح السابقين. في يومٍ من الأيام توجه صوب أحد رفاق فرقته العسكرية؛ ورغم إصابة ذلك الرجل بتشنج بشع إلا أنه تذكر هينرك على الفور. عصر المحارب القديم يد هينرك، ثم قال: هينرك، هينرك أوبست! دار الحديث بينهما ببطء، عن موضوعاتٍ مشتركة عامة، حتى لا يجهدا نفسيهما في التذكر. ثم افترقا وكان هذا ما كان.

يلعب هينرك دائماً، في أي حوار، دور الشخص الحاسم، المتعجل. يقول: ليس لديّ وقتٌ للهو.

كان صارماً. ليس لديه وقت للهو. كأنما ألقى بالكلام في حفرة ودفنه. تضايقه الكلمات. ليست الصفات فقط، إنما الأسماء، كل ما يحدد الأشياء في العالم المادي. الأفعال أيضاً، بالطبع. ضايقته الأفعال كذلك. كان هينرك ليقول: أنا جندي، إذا ما أشار أحد إلى أنه لا يتحدث كثيراً.

كان هينرك يقيس طاولته مستخدماً مسطرة. كان يرى أن أبعاد أي قطعة من الأثاث ضرورية. للمنضدة أبعاد متقنة، ثابتة.

كانت يريد أن يجعل حياته أكثر بساطة، مع وجود بقعة حبر صغيرة على طاولته، تتعقد الأمور. حينها يفكر في سمك تلك البقعة - كأنما أخذ هذا الحبر على عاتقه رفع سطح الطاولة. هناك خرابيش بنية كبيرة على البقعة تشير إلى أن أحد حاول إزالة الحبر، ثم استسلم أخيراً.

عندما حرّك هينرك يده فوق سطح الطاولة، كان يشعر ببروز بسيط للبقعة من خلال أصابعه. وكسلسلة جبال، كان لها مناطق مرتفعة، وأخرى منخفضة. لو كانت يده مسافراً، مجموعة من الأقدام تتبع أثراً، لأصبحت تلك البقعة منحدراً، عقبة، تستدعي جهد أكبر، مساحة تتطلب يده ليتسلقها.

وضع هينرك مسدسه على سطح الطاولة، بجوار البقعة. لا يمثل المسدس ذات النوع من الجبال مثل بقعة حبر. لقد صنع من مادة مختلفة تماماً.

شعر بضغطٍ خفيف على رقبته فرفع يده اليسرى ليكتشف مصدر هذا الألم. نعم، لعلك عرفت مكانه: خف الألم.

أحنى رأسه حتى اقترب بأنفه من فوهة مسدسه. للمسدس رائحة، رائحة بعينها. لا تشبه الطعام بالتأكيد، فكر هينرك مبتسماً ... لكنها لم تكن سيئة تماماً.

رفع رأسه ثم خفضها مجدداً. شم المسدس مرة أخرى. أولاً بأنفه أمام فوهتة، ثم الزناد، ثم المقبض. لكل جزء في المسدس رائحة تميزه. لو أنه ركّز حقاً، لو ركز تماماً على شم المسدس، لصار قادراً على تمييز رائحة كل

جزء على حدة. محفز خاص، ذاب في التقارب، كثلاثة أصناف مختلفة من الطعام في طبقٍ واحد. ثم ابتسم هينرك مجدداً.

هناك دلائل على أن هينرك مهووس بالمسدسات. في هذا الشأن، يمكن افتراض أن الحرب كانت بمثابة عوض هينرك. لكن لا. إنه لا يذكر أنه كان ينظر للسلاح في وقت الحرب. وكأن الحرب، التي تحدث من خلال، وبواسطة، وبسبب السلاح، أزالت إمكانية استمتاعه به كمتحمس لها. الآن فقط، بعد مرور سنوات، صار هينرك قادراً على رؤية السلاح مجدداً. كمتفرج.

اشتمّ فوهة المسدس مجدداً، ثم المقبض: الآن، في الواقع، وبعد أن قضى وقتاً كافياً بأنفه أمام المعدن - شاعراً بقدر من حرارة كريهه تنبعث من المسدس - جالساً على المنضدة، في حالة تركيز تام، وصمت مطبق، بلا أفكار أخرى تشغل رأسه، تمكن هينيريك من أن يشم رائحة يده على المسدس. فرائحة مقبض المسدس تشبه رائحة الرجل - في هذه الحالة كرجل يدعى هينرك أوبست. فكر، رائحة الرجل هي رائحة الإنسان، ثم عاد للتركيز والاستنشاق. تُرى ما الفرق بعد رحلةٍ تبدو تافهة بين فوهة المسدس ومقبضه: خلا المقبض من أي علامة للإنسانية... رائحتة لا تشبه رائحة الإنسان، بل المعدن، رائحة مخيفة جداً، رائحة لا يمكنك وصفها بالشهية. أما بالنسبة لمقبض المسدس - ونظراً لرائحة البشر التي علقت بها - رائحة يد هينرك - ثمة شيء يثير الشهية ... رائحة عضوية، أساسية. إضافة لذلك، وبعد هذا الاكتشاف - لما أدرك بنفسه هذا التباين بين صدمة رائحة فوهة المسدس المخيفة المحايدة، والرائحة المثيرة (نعم المثيرة) لمقبض المسدس - دخل هينرك إلى مستوى آخر من الوعي ... وهو ما

أصابه بالرعب. لم يتمكن من وصف ماهية هذا الإدراك، لكنه رصد نوع من النفور موازياً للإثارة التي منحها لنفسه عندما شم رائحته هو على المسدس... نعم، وعى هينرك أنه بتوصله لهذه المعرفة، كان يقترب بشدة من إدراك رعب خفي: احتمالية أن يأكل إنسان لحم آخر... إمكانية التعامل مع جسم الإنسان كطعام، كشيء يسمح لك بالبقاء...

كان تباين ردود أفعاله نحو هذين الجزأين من نفس الشيء واضحاً: لذا شعر أن فوهة المسدس تهدده، بينما يثيره المقبض ... إثارة هي مزيج من عناصر مألوفة: جوع، شهوة، سأم شديد، دائم؛. سأم ظهر على السطح فجأة لأنه شعر بأنه يستجيب لرغبة ما بداخله، لأنه شعر أيضاً بأن لا شيء تناوله من قبل أرضاه أو أشعره بالشبع. بالنسبة له كانت كل الأيام تشبه بعضها، فلا يهم كثيراً ما تناوله الأمس، لأنه سيجوع مجدداً، ويا لها من رغبة خيالية مملة وغبية! انتاب هينرك الشعور بخيبة الأمل، بل وشعر كذلك بخداع جسمه له نظراً لعدم قدرته على الإتيان بأمرٍ بديع. الجوع بالنسبة له صار همهمةً صوتها يعلو شيئاً فشيئاً حتى ظن أنها لن تنتهي، ولا سبيل هناك لإسكاتها. وبالتالي كان يشعر بصداعٍ داخل أذنه لا يخف أبداً. وكأنه هوس بداخله بمعني آخر. وحتى الآن بعد أن وضعت الحرب أوزارها، يرفض أن يصدق أن رغبة الإنسان في البقاء تقوم أساساً على الحاجة لتناول الطعام. أما في رأيه هو، فتلك الرغبة تقوم على الحاجة إلى القتل، فقد شعر بنفسه بتلك الحاجة، وفي رأيه أنها أنبل كثيراً من الحاجة الأكل.

وقت الحرب، خبز يومك يتراجع للمقعد الخلفي. ألا تموت هو الأهم، أكثر إلحاحاً، أقوى بكثير من الحاجة للطعام. يمكنني دوماً الأكل لاحقاً.

لكني لن أحصل على فرصة أخرى لأبقى حياً. هذه الضرورة جعلت من الجوع أمراً محتملاً. يصعب تذكرها، الآن، كيف كانت.

على هينرك إجبار نفسه أن يأكل. ثمة احتقار في نفسه نحو هذا الفعل. ما من متعة فيه. يرى أن الأكل هو قمة الوضاعة الإنسانية. فعل لا قيمة له، ممل، كالانتظار. يعتقد هينرك، أن الأكل شكل من أشكال الانتظار - وهو غير مدرب على تحمل الانتظار. تدرب على المبادرة. أن يواجه كل شيء، ينال حقه. كان مجنداً في الصفوف الأمامية، على كل حال - عليه التحديق في مدافع العدو مباشرة. الخطر منطقة متميزة، بالنسبة لهينرك - مكان تصير فيه الأمور لواقع؛ كأن الخطر يجعل الناس أسرع، أكثر تأهيلاً، يدفعهم نحو الفعل أخيراً: أبطال، بناة. يلهمنا الخطر أن نشيد أبنية قوية - بيوت رفعت بأمان لتبدو مزيفة، حمقاء، تجهل الخوف، ذلك المحفز العظيم الذي يعرينا، الذي يكشف حقيقة ... الحجر والبشر.

ولكن، الآن، ماذا فائدة هذا الاكتشاف، بهجة رائحة يديه؟ جلس هينرك مشوشاً - منحنياً، يشم قبضة مسدسه - لكنه صار متأكداً، الآن، من فكرةٍ نمت داخل عقله، بهدوء، لسنواتٍ طويلة ... أدرك هينرك أنه يمكنه أن يأكل لحم البشر.

وهذا، أخيراً - بينما يظل منحنياً، ولا يزال يشم مقبض مسدسه - كان أكثر ما أبهج هينرك: الانفصال عن العالم، هذه الرغبة المتنامية. شعر بها داخله كنوع من الموهبة، قوة خارقة، مقدرة على تخطي حدود بعينها.

ولكن لم يعنِ ذلك أن هذه القوه لا تضعف ثقته في نفسه ولو قليلاً.

2

قبل أن تدق هانا - العاهرة - جرس بابه بخمسة عشر دقيقة، أغلق هينرك باب شقته خلفه بعنف - مسدسه، كما هو الحال دائماً، مختبئاً بين حزامه وبطنه - سائراً تحت أضواء شوارع المدينة.

تجرجرت قدميه، استغرقتا وقتاً حتى حددتا مسارهما. في البداية عندما أوصد باب شقته، كانت خطواته حازمة؛ الآن أصابها التردد: فالساعة الآن قربت الرابعة صباحاً - إلى أين الذهاب؟

ربما جاءته فكرة الكنيسة عبر واحد من خيوط الربط الذهني التلقائية، تلك التي لا نشعر بها أبداً - لكنها بدأت بهانا قبل عدة ليال؛ ذكرت عرضاً تلك الكنيسة القريبة بالمدينة: صبي يعمل مساعداً للقس، كان واحداً من أفضل العملاء، وأقلهم خجلاً. صبي جميل، في رأيها. ثم راحت في سرد كل التفاصيل الحميمية، كما كما كانت تفعل غالباً في حديثها مع هينرك.

كانت هذه التفاصيل بالتحديد هي التي شحذت فضوله. لم يمارس الجنس مع رجل أبداً؛ شعور بالانزعاج سيطر عليه، في بعض اللحظات، يتعلق بشكل الرجل؛ ولكن في حالة هذا الصبي، ما جذب اهتمام هينرك - وفق ما قالته هانا - كلما قابلت الفتى، عبر عن رغبته في أن يصير قسيساً. هذا التناقض اكثر ما وجده هينرك اثارة.

لذا، قد يكون ذلك الحوار بينهما هو ما دفع هينرك إلى التوجه صوب محيط الكنيسة. لم يكن بالطبع يتوقع أن يقابل ذلك الصبي الذي حدثته هانا عنه، لكنه بدا - وهو أمر واضح للعيان - كأنه يبحث عن شيء. شعر

بالجوع. نعم، يملك شهية. جال بخاطره بينما هو في سيره أن لديه "شهية إنسانية" حقيقية. منحه وجود المسدس فوق جلده الهدوء: كان هينرك يبحث عن شيء بالليل، ولم يكن خائفاً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثاني عشر

جومبرز وثيودور

1

الجدران في مصحة جورج روزنبرج مغطاة بالتقويمات. أقدمها يعود لعشر سنوات. لم يزلها أحد. لم تزعج أيهم.

النور والظلام أمران يقعان تحت سيطرة الممرضات: ممنوع استخدام الثقاب؛ لا توجد أي أقباس كهربائية خارج غرفة الاستراحة؛ عندما تُطفأ الأنوار، لا يجد أكثر المرضى دهاءً أكثر من زر أو اثنين يلعب بهما.

اعتاد مدير المصحة أن يقول أن المكان صُمم ليحتوي كل أنواع الغموض. الأشياء والإجراءات خاضعة لنزعته في إضفاء البساطة والوضوح على المكان: كل ما في المستشفى له وظيفة، استخدام فوري، يمكن استنتاجه بسهولة - نادراً ما توجد أشياء ليست للاستخدام اليومي؛ لو تمكن مريض من النسيان، حتى ليوم، يتحول الشيء الذي لا غنى عنه إلى شيء دون نفع، دون أهمية. نوع فعال من الانتقاء الطبيعي في حياة المصحة اليومية: كل ما يعتبر إفراطاً يصبح هدفاً علاجياً: ستحاول المصحة التخلص من هذا الشيء، محوه، نفسه خارج الدائرة... وكأن كل حياة، بالضبط حجرة مكتب، لها سلة مهملاتها: مكان محدد، على نحو مبهم، حيث العادات، التصرفات، وإن أمكن، الأفكار غير ذات الأهمية جديرة بالتخلص

منها - غير ضرورية، أي، بالنسبة للأطباء. ما يُلقى داخل سلة مهملات كل فرد ليس اختياره، إنما بناء على متطلبات علاجه/ علاجها؛ أصعب ما في هذا الأمر ليس فعل التخلص في ذاته - التخلص من العنصر البادي الخطورة في حياة الشخص - إنما الأصعب هو كيفية التعامل، حينئذ، مع سلة الفضلات الصغيرة الخطرة في رؤوسهم: كيف تدفن، كيف تنسى، الحيلولة دون تسميمها لباقي حياتك. نهاية، فإن عدد المرضى الذين تمكنوا من نسيان ما سرق منهم - ومن ثم اعتبارهم "معافين" - ضيئل جداً في الواقع. أترى، لا يعنى علاج المريض حثه/حثها على التخلص من سلوك معين: إنما يعني مساعدة المريض على نسيان أن ثمة أي طريقة لاستعادة من هذا السلوك ... هذا يعني مسح مسار العودة إلى مدفن القمامة الخاص بداخلك.

في مصحة جورج روزنبرج، لا يراقب الأطباء تصرفات المرضى وحسب، لكنهم حريصون على متابعة طريقة عمل عقولهم بعمق وبشكل أخلاقي: الهدف فهم ما يفكر فيه مرضانا؛ يجب أن يرتكز العلاج على غير المرئي بقدر ما نهتم بالحيوان.

وهكذا، تعلم المرضى أن الخوف من استفهام جومبرز المفضل: فيم تفكر، عزيزي ؟

بالطبع، الوحيد الذي يستطيع الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة هو الشخص المسؤول: لا توجد طريقة لإجباره على الصدق: محتمل أن يكذب المرضى ولن يدرك أحد الفارق، محتمل. من ناحية أخرى، ليست المشكلة في ذعرهم من إفشاء الحقيقة؛ إنما المشكلة في أن يقولوا ما شاؤوا من الحقيقة ويظل دكتور جومبرز على قناعته بأنهم كاذبون، ثم يغير

طريقة العلاج بالتبعية. لا سبيل لإجبار أحد على قول الحقيقة، ولا إجبار أحد على تصديقك. كيف ستثبت أنك تقول ما تفكر فيه؟

في التحليل الأخير، يمتد علاج جورج روزنبرج من تصرفات المريض إلى أفكاره/أفكارها من خلال قرارات عشوائية تماماً. سواء صدق أم لم يصدق جومبرز ما إذا كان المريض يقول الحقيقة حول التفكير بطريقة خطرة أن بشكل غير تقليدي. كل ما كان يهمه هو الجانب العملي الواقعي، الملموس؛ هذا ما يهمه بالدرجة الأولى.

يركز دكتور جومبرز، إذن، على "الحد الأدنى من الأخلاق"، يرفع أحيانا مستوى الاستجواب؛ فيسأل ما إذا كان المريض/ المريضة على علم بما يجب أن يفكروا فيه، وليس ما يفكروا فيه بالفعل. كان يتصرف كأستاذ جامعي يطرح الأسئلة في امتحان رياضيات أو نحو: لا توجد إلا إجابة واحدة صحيحة. حتى الأصحاء قد يجدون هذا الأسلوب غير مريح إطلاقاً.

ثيودور باسبيك، على سبيل المثال - الذي كان يألف ذلك النوع من التورط الذهني للطبيب مع المريض - لم يرض عن هذا الأسلوب من الاستجواب ... ناهيك عن التهديد.

- فيما يجب أن يفكر الفرد؟ وإلى أين يجب أن يوجه أفكاره؟

- إلى أين يجب أن يوجه الفرد تفكيره كي لا يعتبره الآخرون مريضاً عقلياً؟ تلك هي المشكلة التي فرضها دكتور جومبرز، تلك التي تشغل بال دكتور د. ثيودور باسبيك ...

صحيح، أصل السؤال، في هذه المهنة - ليس مجرد ممارسة علاجية فقط، قاصرة على علاج المرضى عقلياً، بل هو سؤال أخلاقي الأصل، مرتبط بالإنسانية كلها.

- فيما يجب أن يفكر الفرد الأخلاقي؟ وفيما لا يجب عليه أن يفكر؟

بالطبع حاولت الكنيسة أن تجد إجابة لهذا السؤال. هذا قبل ظهور الأطباء النفسيين، وضعت الكنيسة نصب أعينها ليس فقط أفعال الإنسان، لكن أفكاره... وتصدر حكماً ما إن وجدت ضرورة لهذا. لم يكن كافياً أن تتصرف بنزاهة. يجب أن يكون لدى الفرد الأفكاراً السليمة. فكرة تقود للأخرى. ونظراً لأن الأفعال تنبع من الأفكار، فإن الأفعال غير السوية تعتبر دليلاً على التفكير الخاطئ.

وبذلك، وبرغم أنه لم يجرؤ على التصريح بهذا، لم يكن مفهوم دكتور جومبرز للجنون طبياً، بل أخلاقياً. بكل بساطة، الشخص الذي يتصرف بصورة غير أخلاقية هو شخص مريض عقلياً - فالشخص الذي يتصرف دون أخلاق، لديه أفكار غير أخلاقية. فالجنون، إذن، هو نقص بسيط في الأخلاق - سواء *مؤقت*، وبالتالي يمكن علاجه، أو *قاطع*، بلا نهاية، ولا يمكن علاجه. وفق ما يرة جومبرز، الفارق بين، ما يسمى، الإجرام، وبين، ما يسمى، كذلك الجنون، تصنيفي: لأنهما أنماط من الجنون، وبالتالي،

نمطان من انعدام الأخلاق: من ناحية، جنون شخص مدفوع للتصرف بشكل ينافي السلوك الاجتماعي المقبول، ومن الناحية الأخرى، جنون شخص يتمتع بقدر ضئيل من الوعي بالعالم الذي يتعامل معه. يمكن بسهولة أن نطلق على المجرم لقب مجنون، والمجنون، في جهله، لا زال مرتكباً لجريمة - حتى لو لم يؤذي أحداً - طالما تؤكد تصرفاته عدم استيعابه للقواعد التي تحكم المجتمع. التصرفات التي تنبع من جهل هي تصرفات غير مسئولة، وعدم المسئولية لا أخلاقي - أو هذا ما يؤمن به جومبرز. لا أخلاقي وبالتالي إجرامي.

تناقش ثيودور باسبيك وجومبرز عدة مرات حول الموضوع. ورغم أنه من المعلوم تفوق باسبيك على جومبرز في مجال البحث، إلا أنه لم ينجح في صناعة اسم لنفسه في الإدارة العملية للجنون - ليس للدرجة التي حققها جومبرز في مصحة جورج روزنبرج.

غُلفَت نقاشاتهما ومحاوراتهما بمفهوم ضمني، اتهام ما: في ظن ثيودور: *أنا أعرف أكثر منك*؛ بينما في ظن جومبرز: *لقد أنجزت ضعف ما فعلت.*

ولكن على الرغم من هذه الخلافات النظرية، إلا أن بين الطبيبين مودة أبعد من المهنة. طالما احترم ثيودور قرارات جومبرز الطبية الخاصة بميليا، زوجته، بصرف النظر عن تقييمه لمنهج زميله. حتى أن ثيودور تحدث مع جومبرز مرة أو مرتين عن البحث العلمي الذي كان يجريه جنباً إلى جنب مع عمله في مجال العلاج النفسي - محاولة فهم تطور الرعب عبر التاريخ، في سبيله للتوصل إلى بيان قد يحدد تواريخ ومواقع أحداث تراجيدية كبرى ستقع في القرن القادم. كان جومبرز منبهراً بفكرة ثيودور

أن يعالج أحد التاريخ المكتوب وكأنه دراسة حالة لمريض نفسي محدد. نعم جعلت خبرته المهنية دكتور باسبيك يبدو قزماً - فقد عالج جومبرز عدد أكبر من المرضى ذوي الحالات المتأخرة أكثر من ثيودور - لكن تظل جرأة نظرية المنحني التاريخي لثيودور أمر يُحسد عليه. فكّر جومبرز أكثر من مرة في أن يترك عمله ويعرض خدماته لمساعدة ثيودور. ولكن من الأسهل أن يُرى هذا المشروع الجديد كعمل فردي - لا يمكن لأحد المشاركة فيه.

منذ أن تقابل الاثنان، نما إعجابٌ متبادل بين الرجلين بمرور الوقت... الذي، رغم كل شيء، لم يمنع استمرار الضغينة التي شعر بها كل منهما تجاه الآخر - ضغينه تولدت عن شك متبادل وغير مريح بينهما واعتقاد كل منهما أن (الآخر) *لايحتاجني*. كلا، لا يحتاج كل منهما للآخر ... وبذلك، فهما على استعداد أن يكرها بعضهما.

الفصل الثالث عشر

ثيودور وجومبرز وكراوس

1

حضر ثيودور منذ بضع دقائق إلى مكتب دكتور جومبرز. سادت أجواء ملبدة دفعت كليهما للصمت. رجاء *أن تاتي إلى مكتبي في اليوم الفلاني والوقت الفلاني*. لم تكن إذن دعوة اجتماعية. ميليا، زوجة ثيودور، مريضة جومبرز، كانت الموضوع.

تحدث جومبرز أخيراً

"عزيزي دكتور باسبيك، سأدخل في صلب الموضوع. ولم أكن أتمنى مطلقاً أن نخوض في حديثٍ كهذا."

جلس ثيودور قبالة جومبرز. دار جومبرز بمقعده من جانبٍ إلى آخر خلف مكتبه.

قال ثيودور: ثمة شيء أصاب ميليا.

قال جومبرز: دكتور باسبيك ... سأكون صريحاً معك إلى أقصى حد. أعلم جيداً أن كلينا محترفٌ في عمله، لا مجال للحساسية بيننا، لكن اليوم أود أن أتحدث إليك بصفتك زوج، وليس كثيودور الطبيب ... فالموقف دقيق. الحقيقة يا دكتور باسبيك أن زوجتك، ميليا، ومعها مريض آخر ... حسنا، *لقد فعلاها*. هنا في المصحة. أمام باقي المرضى. منذ

يومين. أنا آسف، لكن من حقك أن تعرف ما حدث. هناك عدة شهود. عدد من المرضى، كما قلت، و ممرضتان تدخلتا لاحقاً. في هذه المرحلة، كانا منشغلان بفعلها لعدة دقائق، أشعر بالخجل. إنها الضجة التي أحدثها نزلاء أخرون التي نبهت الممرضتين. أعتذر مجدداً.

أكمل جومبرز: بالطبع كنت ستسمع عن الخبر عاجلاً أم آجلاً. فأنت تعلم جيداً كيف تتناقل أخبار كهذه بين المرضى. إنهم يتحدثون حتى وإن لم يكن هناك ما يتحدثون عنه. ثم هناك الممرضات كذلك. حتى ممرضاتنا لا تستطعن إبقاء أفواههن مغلقة. لقد قضيت يوم أمس في صراع عن كيفية إطلاعك على الأمر، لكن قصصاً عن زوجتك بدأت في التناقل - مبالغات، أسبق بقولي هذا - لذا قررت أن أصارحك على الفور، قبلما تصلك الأخبار من شخص آخر، خشية التأخر فتصلك أحد هذه الافتراءات أولاً. أستطيع معرفة هذا من خلال رد فعلك أن الأوان قد فات ... لكني أؤكد لك أن ما سأقوله هو الحقيقة، الآن: أي أمر آخر سمعته لا أصل له.

من يكون؟

أنت تعرف جيداً أني لا أستطيع الإفشاء عن معلومة كهذه. فكل هؤلاء مرضاي، وأنا ملزم بالحفاظ على خصوصيتهم. لا يحق لك سوى معرفة معلومات عن زوجتك.

اسمه ... اسمه فقط.

إرنست سبنجلر. أحد المصابين بالفصام لدينا.

جاء قبل زوجتك بسنتين.

قال ثيودور: إرنست سبنجلر

"أتمنى أن تبقي هذه المعلومة لنفسك. لقد كسرت اللوائح قليلاً. كل ما أردته هو إشباع فضولك."

وما خطب إرنست ذلك؟

"غير أنه مصاب بالفصام؟ لا أستطيع أن أخبرك أكثر. ولا أرى فائدة من ذلك."

أخفى جومبرز بعض الأوراق من فوق مكتبه بأطراف أصابعه خلسة.

"أرجوك لا تعطي ما حدث أهمية كبيرة. تعلم أكثر مني أن ..."

قاطعه ثيودور وقال بفظاظة: "عليك أن تفصل بينهما. لا يجب أن يتقابلا مرة أخرى. لا يجب أن يتواصلا بأي شكل. في أي موقف."

أخذ جومبرز نفساً عميقاً. ثم ردّ عليه بأهدأ ما يكون: "مستحيل، دكتور باسبيك، كما تعرف بالتأكيد، وبناء على اللوائح، يجب معاقبة كلٍ منهما بصورةٍ ما، ولكن لا يمكننا منع أي تواصل. ليسوا في سجن. هناك الاستراحة، وهناك مجموعات أنشطة، وهكذا. لا أستطيع أن أنفذ ما تطلبه مني."

قال ثيودور: "جيد جداً، أرى أنك تريد إدارة مصحة جورج روزنبرج وكأنها فندق رخيص. ربما يمكننا أن نبدأ في تأجير الغرف بالساعة. كم تشعر بالفخر لما استطعت انجازه هنا".

صمت ثقيل مرة أخرى. أخيراً، اتجه جومبرز صوب دولابٍ خشبي، فتح أحد أدراجه، وأخرج ورقتين.

قال: "هناك سبيل وحيد، تنفيذ الشروط التي طلبتها، ولكن قد لا يكون ..."

"أخبرني."

"لكل مؤسسة لوائحها الخاصة. لكنها تتباين تبايناً كبيراً، من مؤسسة لأخرى. أعتقد أن لوائحنا هنا أكثر إنصافاً من أي مكان آخر. حقيقة، أتصور أني لم أكن لأقدر على إدارة جورج روزنبرج لو لم تكن كذلك، كل شيء وضع في الاعتبار، الأفضل لمرضانا وأسرهم.

"أما بخصوص إرنست، ربما تعلم أنه لا سلطة لك عليه. هو شخص مستقل، وليس لك حق بالتدخل في حياته، رغم تقاطعها مع حياتك بهذه الصورة من خلال هذا الحادث المؤسف. أما بخصوص زوجتك، فلديك حقوق - وهي، هناك خيارات متاحة لزوج المرأة المحتجزة في المصحة للعلاج... مثلاً، هناك إجراء - بيننا يا دكتور - نشير إليه باسم العزل الاجتماعي المؤقت. أي أننا، نقوم بعزل أحد نزلائنا لفترة من الزمن. لدينا ثلاث غرف مخصصة لهذا الغرض، منها غرفتان خاليتان حالياً. الغرف مجهزة جيداً وفي أفضل حال، بإمكانك مشاهدة الغرفتين بنفسك. إنها أماكن إقامة جيدة.

أكمل جومبرز: "إننا نطبق هذا الإجراء، في المواقف التي يشكل فيها المرضى خطراً. ورغم أن الحالة هنا تختلف، لكن..."

"يبدو لي أن الحالة تنطبق هنا". قال ثيودور باسبيك

كرر جومبرز بنبرة حادة: "كلا لا تنطبق الحالة هنا، لكن لازال يمكننا التوصل لحل وسط."

صمت لثالث مرة. جومبرز مشغول بقراءة الشروط الكثيرة المختلفة التي وردت في الوثيقة. حسب القانون، يجب أن تستوفى كافة الشروط للبدء في اجراءات العزل.

"عزيزي باسبيك"، قال أخيراً، "ربما أمكن، يمكن أخذ حادث زوجتك في الاعتبار ... لكن يظل من الضروري أن نحصل على موافقتك. عليك أن توقع على استمارة. فهذا أمر لا يمكننا فعله ببساطة. عملياً، هذا يعني العزل لمدة عام. بينما أعتقد، على المستوى العلاجي، ربما يكون لهذا الإجراء آثار صحية على زوجتك، أليس كذلك ..."

قاطعه ثيودور: أريد التوقيع.

3

ناول جومبرز الوثيقة لباسبيك ليقرأها.

قال جومبرز: خذ الوثيقة معك للبيت، تأكد من رغبتك في الإقدام على هذا الإجراء.

قال ثيودور: "لا، شكراً ... سأوقع الآن."

"دكتور باسبيك، أرجوك"!

رد ثيودور: "سأوقع الآن."

"دكتور باسبيك، الإجراء ساري لمدة عام، الأفضل أن تغير رأيك الآن من أن تعيد التفكير لاحقاً. مدة العام وقت طويل."

أومأ ثيودور برأسه وأخرج قلماً من جيب سترته.

قال جومبرز، رجاء وقع بهذا القلم، وناوله قلمه الأسود.

قال ثيودور: "انتهيت"، ثم سلم الوثيقة موقعة للمدير.

كان ثيودور في طريقه للرحيل.

قال جومبرز متردداً: "دكتور باسبيك"

"نعم؟"

"لن تطلب الطلاق، هل ستفعل؟ كما أخبرتك ... الإجراء ساري لمدة عام. لن تتمكن من إعادة ميليا للانخراط وسط الناس حتى تنتهي

صلاحيتة هذه الوثيقة. مهما فعلت، أو مهما كان رد فعلها ... أو حتى لو لم تعد زوجها. أريد فقط التأكد من أننا اتفقنا. لن يكون من المناسب أن تطلب الطلاق في ظل هذه الظروف..."

قال ثيودور: "كلا، ليس مناسباً. طاب مساؤك، دكتور جومبرز."

وصل ثيودور باسبيك مكتب كراوس المحامي، صديقه، وبعدما تبادلا حديث ودي بسيط، قال:

أريد أن أشرع في إجراءات الطلاق، بدءاً من اليوم.

دون أن ينطق بكلمة، عاد كراوس صوب مكتبه، وجلس على مكتبه، مستعيداً جديته المهنية اللازمة لتلبية طلب صديقه - مستغلاً ما أتاحته له هذا الرحلة القصيرة ليبدو في حالة من الأسى التراجيدي، بإخلاص، ما أمكنه ذلك ... دون، مبالغة، أخذاً في الاعتبار الطريقة المرتجلة التي تعامل بها ثيودور مع الأمر. كان لزاماً عليه أن يظهر مدى أسفه ... على الأقل حتى يعرف أكثر.

سأل كراوس، بعد أن سحب ورقة وقلم - آملاً أنه يستخدم النبرة المناسبة - "ما السبب، ثيودور؟ مشاكل ... ذات طبيعة نفسية؟"

جاء رد ثيودور مباشراً من دون أي مشاعر:

"الزنا، في الواقع."

صوّب ثيودور جوابه وقال:

"أجل، مشاكل نفسية."

ردّ عليه كراوس المحامي: مشاكل نفسية إذن.

5

بعد شهرين، استدعى ثيودور لزيارة مصحة جورج روزنبرج للتحدث مع جومبرز.

تفضل بالجلوس يا"دكتور باسبيك ...

حسناً يا صديقي، ها نحن نلتقي مجدداً. أعلمَ أنك ماض في إجراءات طلاقك، ولا أملك لومك على ذلك ... لا يحق لي. دعيتك لأمر متعلق بهذا الأمر. لدي أخبار لك ... أخبار تفيد بأن، يمكننا القول ... ربما بأخذ مسألة الطلاق بعين الاعتبار ... معلومات، ربما، تورطني ...

نحن مُعدون لتحمل المسؤولية كاملةً. أمر كهذا غير مسموح على الإطلاق في مصحتي. الحقيقة يا دكتور باسبيك أن زوجتك حامل ...


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع عشر

جومبرز وثيودور

1

دكتور باسبيك... أكرر مجدداً: نحن مستعدون لتحمل المسؤولية كاملةً. تحدثت مع مجلس الإدارة، ومن الواجب أن يتم تعويضك، على نحو ما، لهذا ... الموقف السيء. أثق أنك لن تجد هناك ضرورة في تعقيد الأمور في تصعيد شكواك من خلال وسائل أخرى ... فالإدارة لدينا تعرف كيف تتصرف.

تلاحق الشائعات زوجتك بالفعل في كافة أنحاء المستشفى. وقد حدث الضرر، على هذا المستوى، وعلينا أن نتحمل تبعاته. من الواضح، أيضاً، أن ميليا، أو الرجل، إرنست سبينجلر، غير مؤهلين لتربية طفل... الاثنان مازالا يخضعان للعلاج، ولا أرى هناك أمل في شفائهما عما قريب. إن زوجتك، أو زوجتك السابقة، سعيدة بحملها، وهذا على ما أعتقد بشرة خير ... ولحسن الحظ، وعلى الرغم مما أخبرتك به مسبقاً، فإن إجراءات العزل تتضمن بنداً يسمح بالفسخ المبكر في حالة الحمل. وعليه، يسعدني أن أخبرك أن ميليا قد عادت مجدداً إلى غرفتها القديمة، وسمحنا لها كذلك بالانخراط مع الناس. كنت أنوي إخبارك بإجرائنا الأخير مبكراً بعض الشيء، ولكن، كما قلت، نظراً لحمل ميليا، فإن حصولنا على

توكيل منك بالتصرف لم يكن أمراً ضرورياً، وأنا متأكد أنك ستتفهم موقفي.

بعيداً عن أي تعويض تستحقه، أود أن أناقش معك مصير الطفل. كونك زوج ميليا، أو زوجها السابق... يمكنك، إذا أردت، تكون بمثابة أب له. ولكن لا أعتقد أن أحد قد يتوقع ذلك منك، في ضوء الأحداث الأخيرة. ولسوء الحظ، مضطر أن أخبرك سيولد مصاباً بعاهات جسدية.

مهما كان قرارك، ستقف مصحة جورج روزنبرج بجوارك - سنعتبر ما تقوم به صحيحاً، مبرراً، نهائي. إضافة لذلك، اسمح لي، كزميل، أن أعلن، في هذه اللحظة العصيبة، أنه مهما كان القرار الذي ستتخذه، فحتماً لن تشوبه شائبة أخلاقية.

توقف جومبرز عن الكلام وأخذ نفساً عميقاً. أخذ يفكر في الموقف الحالي، فها هو كان يجلس لتوه على مقعده خلف مكتبه، انخرط في حديثٍ صعب مع دكتور باسبيك - أحد أفضل واضعي النظريات في مجال الصحة العقلية في البلد - للمرة الثانية في غضون بضعة أشهر. لم ينطق باسبيك ببنت شفة؛ بل ظل مائلاً للأمام وكأن هناك من يوبخه: فالحقائق التي كانت تُعرض أمامه كانت وكأنها اتهام موجه له. راقب جومبرز ثيودور، منبهراً بمشهد عقل بارع يحاول تحدي الواقع، لتجاوز أحداث الماضي القريب، التي، وعلى نحو غير متوقع، خرجت من السيطرة. دمرت الحياة خطط ثيودور الدقيقة بوحشية - على نحو واضح - بل صارت شيئاً غريباً عنه الآن، تجرد من النظرية، ليصير خارج حدود رضاه تماماً...

فكر جومبرز في أثر بيئة الفرد المحيطة، بفرحةٍ يشوبها الخبث - محاولاً منع نفسه من الابتسام. لا يهم مدى ذكائك، ستظل نتاج ظروف محيطك ...

ولكن لا يعني ذلك أن جومبرز لم يشعر بالأسى تجاه زميله. لقد فعل - رغم أنه كان شعوراً مجرداً أجوفاً. طالما ظل جومبرز في موقع قوة؛ رغم اعترافه بالمسئولية، بصفته الطبيب المسئول عن الإدارة في المصحة، لعدم يقظته التي تسببت في المشكلة، إلا أنه لم يشعر بأي قدر من التورط العاطفي بالأمر. أجل، لا أحد ينكر أن جومبرز قد وقع في خطأ مهني فادح، ولكن لن يؤثر ذلك على حياته بأي صورة مؤثرة... على عكس ثيودور. بالنسبة لجومبرز، هذ خطأ يمكن محوه. خطأ يمكن محوه بالمال.

يكمن التناقض هنا أن ثيودور، الذي لم يكن مسؤولاً عن الفوضى التي وجد فيها نفسه - أو ليس تحديداً هو - الذي وضع نفسه في وجه أكثر تبعاتها خطورة؛ فشله - في إبعاد هذه المنغصات، مرغماً على الانخراط في هذا العالم مجدداً - لا يمكن استبداله. كانت تلك لحظةٌ حاسمة: دعوة سنحت له الفرصة أن يعود مجدداً لقائمة الأصناف التي ينتوي إنقاذها من الضياع. كان يشعر أنه مُعاقب، ولكن لماذا هو؟ ولماذا الآن؟ رجلٍ انسحب تدريجيا من الحياة، غارق لسنوات عديدة في بحثٍ هام، عن جنون الفرد والعالم؛ رجل ينشر، من حين لآخر، مقالاً علمياً، والذي في خلال أيام، يستجلب تجاوباً وهجوماً بلا حدود، مؤثر في كل فرع من فروع مجاله... رجل بهذه المقدرة العقلية يعي أن مائدة الواقع لا تسعه وحده، وحده فقط... هناك آخرون يأكلون أيضاً، وهم مرحب بهم، قالها ثيودور لنفسه. لمَ أُجبَر أن آكل نصيب شخص آخر؟

لم يكن لدى جومبرز أدنى اهتمام بمثل هذا التنظير. انتظر ثيودور ليتكلم. لقد أدى المدير مهمته؛ عليه الآن الانتظار صامتاً. كلما طال أمد الانتظار، كلما وجد نفسه مستمتعاً بتلك التجربة: أي متعة هذه التي تواتيه عندما يرى العالم المادي - الذي ظن أنه يمثله - يتسلل مدمراً كبرياء انسان آمن أنه قد يحيى، من البداية للنهاية، دون أن يحتاج أدنى احتياج لأحد.... ودون أن يحتاجه أحد. فكر جومبرز، عزيزي ثيودور، انتهى كل شيء ... لقد ألقت المشاكل بنفسها في طريقك. لا يمكنك استكمال حياتك كالمعتاد - عليك أن تتخذ قراراً، وحدك، ... غير مسموح بمنحنيات أو نظريات.

بذل جومبرز قصارى جهده لإخفاء استمتاعه؛ كتم أنفاسه، محاولاً الحفاظ على رباطة جأشه؛ وكان، للإنصاف، جهد هائل: ثمة شيء خبيث في نفس المدير- أدركه، لم يكن فخوراً به بشكل خاص- وأجهده كتمانه. تذكر جومبرز بعض الرسومات البيانية التي أراها له ثيودور في الماضي، خلال أحاديثهما عن بحثه - أبرزت تلك البيانات مسار تلك "المفاجآت" الصغيرة في تاريخ العالم - ثم تمنى أن يضعها الآن على الطاولة، ينظر في عيني هذا الباحث البارع، ويقوم: هل تذكر هذه؟ دعنا نرى كيف سترسم طريقك للخروج من هذه المفاجأة الصغيرة...

كم من الممتع أن يحضر تلك اللحظة التي تشهد فشل نظرية باسبيك. إذا فشل ثيودور في استشراف ما كان على وشك الحدوث في حياته الخاصة - أو للشخص الأقرب منه، عاطفياً - كيف له أن يتنبأ بأي شيء عن باقي العالم، أو زمنه العزيز؟

حدّث نفسه قائلاً: ماذا بك - عزيزي ثيودور، هل لا زلت غير قادر على اتخاذ القرار؟ ثم ارتسمت بسمة حاول جاهداً إخفاءها على شفتيه، رغماً عنه - بسمة خبيثة، بسمة شريرة. هل ما زلت عاجزاً أينشتاين الصغير؟ حسناً، ما نفع عقلك البارع؟ آهٍ يا ثيودور باسبيك، لو ترى وجهك الآن! صراحة، يا صديقي، تبدو كالأبله الآن ... مستحيل! قد تقول هذا، لكنك أمامي الآن - شاحب الوجه، متجمد داخل خوفك، وكطالب فاشل دعي للسبورة. آهٍ يا عزيزي ثيودور باسبيك، صدقني لو تسلق فأر مكتبي، وقفز فوق كتفيك، وركض فوق رأسك العبقري، وتدلى ذيله الطويل على أنفك، لن تلاحظ حتى، لن تقوى على حماية نفسك - غارق في التفكير! لكن الفئران لن تلزم الأدب منتظرة حتى تنهي نوبة تفكيرك - إنها تتحرك، عزيزي

ثيودور باسبيك، إنهم هناك، أسفل أقدامنا، تتحرك بأقدامها الدقيقة باستمرار، وتشم أنوفها الصغيرة كل النفايات التي نتركها وراءنا، تتسلق داخل وخارج كل فتحة تركناها لها، ستعيش وكأنها في بيتها، سواء بخندق أو مكتبة - العنف أو الثقافة، الكل سواء عندها. نعم، عزيزي ثيودور باسبيك، لو ترى وجهك الآن - وبمناسبة الحديث عن الفئران، لا أتمالك نفسى من رؤية شخصك المحترم وقد بدا كالفأر... لك وجه الفأر، زميلي العزيز أجل! ياللوضوح، الآن وضعت يدي على الرابط ... باسبيك، الباحث الذي يشبه الفأر، يقرض طريقه خلال تاريخ العالم! تريد أن تبين لرفاقك الفئران أخطاء مساراتهم ... تريد إثبات أن الطاولة ليست خندقاً وبالعكس ... لكنك أخفقت، أتسمعني ... لن يحدث! لست كفأر بحال أفضل منك كإنسان، ربما من الأفضل أن تقضي أجازةٍ قصيرة. عليك بإعادة شحنة بطاريات الفئران الخاصة بك. يا لها من فوضى صنعتها حياتك! فقط انظر لنفسك. تكاد شرايينك تنفجر، أراها الآن، منتفخة أسفل جلدك... هدئ من روعك يا عزيزي ثيودور ... هذه هي اللحظة الفارقة! لا تدع الموت ينال منك لأن الحياة تركتك وحيداً! كن على قدر المسئولية! اتخذ قراراً!

"أتريد كوب من ماء، دكتور باسبيك؟"

هز باسبيك رأسه.

لا عليك، دكتور فأر... لا مزيد من الأخطاء. لا مجال لأخطاء أخرى. تناول شراباً. أعد التزود بالوقود. أنت في حاجة لذلك.

قال جومبرز بلباقة: "سأحضر لك كوباً من الماء."

"وجهك يشحب."

لكن ثيودور باسبيك أوقفه.

"أشكرك دكتور جومبرز. أقدر لك لطفك، ولكني اتخذت قراري. سأحتفظ بالطفل. رجاء، تأكد أن الطفل سيحمل اسمي في كافة الأوراق الرسمية اللازمة. أتمنى أن تقدم الرعاية الكافية لزوجتي السابقة حتى يولد الطفل. عندها، سأرسل من يتسلمه منك. أما بخصوص التعويض، فلا يمكنني رفض العرض المقدم من الإدارة... أعتقد أن مبلغ ثلاثة ملايين مناسب - كاف لمنع مقالي القادم من تحطيم سمعة مصحة جورج روزنبرج الرائعة. شكراً على وقتك، دكتور جومبرز. أتمنى أن يكون لقاءنا القادم في ظروف أفضل."

غادر ثيودور باسبيك المكتب بعد مصافحة سريعة وقوية، ثم سقط جومبرز على مقعده. ثلاثة ملايين! حان دوره الآن ليصبح وجهه شاحباً.



الفصل الخامس عشر

يوروبا 02

1

ترك ثيودور ابنه الوحيد، ذي الأعوام السبعة، كاس باسبيك، في المدرسة كالمعتاد، جالساً على إحدى الطاولات في المكتبة، يتأهب للعودة من جديد لبحثه لهذه أو تلك الفترة من التاريخ، عندما شد انتباهه بعمل أدبي تركه أمين المكتبة على طاولته مصحوباً بصحبة ملحوظة: *ربما يسترعي انتباهك يا دكتور*. اسم الكتاب "يوروبا 02".

تصفح ثيودور سريعاً صفحات الكتاب: بدا كأنه كتالوج. اختار صفحةً عشوائية، ثم قرأها، استمر على هذا المنوال: يقلّب الصفحات، ذهابا وعودة.

(I)

من يرتكب خطأ يستبعد. سيلقى به داخل صندوق. من بالخارج لا يمكنه رؤية الصندوق. لكن الشخص المحبوس، المستبعد، يمكنه رؤية الخارج. يرى كل شيء، يرانا جميعاً.

هناك عشرات الصناديق في كل قسم. آلاف الصناديق إجمالاً. أغلبها فارغة. والأخرى تحوي المستبعد. لا أحد يمكنه تمييز الصناديق.

صناديق كثيرة لدرجة أن لا أحد يلقي لها بالاً. قد يكون داخلها شخص ما، ربما شخص تحبه، لكنك لا تكترث بالنظر. لدرجة أنك لم تعد تراهم. لأنك تمر عليها مئات المرات يومياً.

(II)

البحث

عندما تنطلق الصافرة، لديك عشرة دقائق لتعود لحجرتك. إلى بضعة الأمتار المربعة التي تخصك.

وبعدها لا يمكنك المغادرة، ولا يمكن لأحد أن يدخل.

فور انتهائهم من إجراء الأبحاث عليك، فإنهم يسمحون لك بالخروج. البعض لا يخضع للبحث إلا لعشر دقائق فقط، والبعض الآخر عشرة أيام.

قد تُحبس في ركنك الخاص لأيام منتظراً خروجك. وحينما تشعر أن وقتاً طويلاً قد مضى، وهناك أناس آخرون يتجولون بحرية في الممرات بالخارج، ستبدأ في القلق، لأنك ستشك أنهم نسوك.

إنهم يجرون أبحاثاً على جسمك، أو بالأحرى الأجزاء الظاهرة منك. يأخذون مقاساتك وعينات من كل شيء يفرزه جسمك. يجرون أبحاثاً عن أشيائك أيضاً، ويعدّون كل الأشياء المتواجدة في ركنك الخاص. يأخذون صوراً لكل شيءٍ حولك من زوايا مختلفة. يفحصون صورهم بدقة شديدة، ويتأكدون من أن كل شيء حولك ينتمي إليك، وأن لا شيء قد فاتهم.

(III)

ستلتزم بقوانينهم حرفياً، لكن إن عاجلاً أم آجلاً سيرسلون لك مستنداً قانونياً موجزاً، حينها ستدرك بأنك قد حُكم عليك بالإعدام.

ما يفعلونه بك إلزامي، لكنه في نفس الوقت قانوني. أولاً يعرضون عليك نص القانون الذي يتبعونه، تلك الوثيقة التي تحدد مسار تصرفاتهم.

لا أحد يعترض على ذلك، فالناس يقبلون القانون. وإن لم يفعلوا، فالأمور لن تصبح إلا أسوأ.

(IV)

تُجرى الفحوصات الطبية في الأماكن العامة.

يعطونك مقعداً، ثم يربتون على كتفك ويقولون: "حان دورك". حينها تقوم على قدميك فوراً، ثم تتكأ على الجدار، ثم تنهار.

يضعون علامة صليب على ظهر يدك بعد انتهاء كل فحصٍ طبي. هناك أشخاص آخرون خضعوا للفحص الطبي عشرات المرات، ومن يخضع للاختبار يعلم جيداً أنه مصابٌ بمرضٍ ما.

يحاول البعض إخفاء العلامات التي تملأ أيديهم من خلال قلبها على ظهرها. ولكنهم بعد ذلك يتخلون عن تلك العادة، يجعلهم ذلك أكثر إثارةً للقرف مما هم عليه، وبالتالي يتجنبهم الآخرون.

(V)

الأدوات

إنهم لا يلمسونك البتة، بل يستخدمون أطراف أدواتهم لإجراء فحوصاتهم. يلوثونك بأطراف أدواتهم. لا يمكنك رؤية أي شيء على الإطلاق، ولكن أطراف أدواتهم تبدو مغطاةً بمسحوقٍ خشن.

قبل أن تحس بالأدوات. فإنك لا تشعر بالخوف، بعدها، أنت خائف.

(VI)

قد يتعمدون إخافتك في بعض الأحيان، فيحدثون جرحاً في بشرتك، ثم يخيطونه مجدداً. تحضر أدواتهم في طبق، ثم يقولون بابتسامة: "غير مريض"، ويتركونك لترتدي ملابسك من جديد.

وفي أحيانٍ أخرى يكون الوضع مختلف، فيحدثون شقوقاً صغيرة، ويلمسون بشرتك بأطراف أدواتهم. ثم يخرجون أشياءً صغيرة من جسمك. ولكن لا يهم ما يخرجونه، فلا ألم في ذلك.

(VII)

التنحية

تفقد فجأة الصلة بشخص اعتدت تحيته يومياً. لن تعرف مكانه. من الممكن أنه تم استبعاده داخل صندوق، أو قُتِل، أو يُعزل لمكانٍ بعيد.

(VIII)

الأمراض

إنهم يبحثون عن الأمراض الغريبة، يبحثون كذلك عن المرضى ذوي الأطوار المريبة. من يشكون أنه يحمل مرضاً غريباً لا يصبح مريضاً حينها، ولكن مجرم.

أن يحمل أحدهم مرضاً عادياً يعني أنه شخص مطيع وملتزم بعمله. أما من يحمل مرضاً غريباً فهذه علامة فشل، أي قلة النظافة الشخصية ... نقص في النزاهة.

(XI)

في أول مرة يجبروننا على فعلها بشخص غريب، أو عندما يأمروننا بفعلها بشخص نعرفه، يقبضون على أيدينا بقوة ويرشدونها. يجب علينا أن نفعلها، لا أحد يرفض. يقبضون بقوة على أيدينا ويوجهونها حتى لا نرتعش أو نفشل، لكي نُعَذِّب بدقة.

ينادون على اسمك في أي مكان وأي زمان، ثم تسمع كلمة "عَذِّب".

هم فقط من يحددون سواء كنت أنت الضحية أو المعذّب، ولا حاجة لأن تكون أخطأت. يختارونك بشكل عشوائي، ليجعلوك تعاني.

حينما يصيحون "عَذِّب" لا تعرف ما إذا كنت أنت الضحية أم المعذّب.

كل ما عليك هو اتباع الأوامر بعد أن ينادوا على اسمك. ستكون الضحية أو المعذِّب لا شيء آخر، وفي النهاية ستتمنى لو أنك أنت المعذِّب لا الضحية.

يحدث التعذيب في مكان الشخص الذي تم اختياره ليكون المعذِّب. لذا، عندما ترى نفسك تُساق نحو مكانك

الخاص، لن تشعر إلا بالجذل. ستضم قبضتي يديك وتدمدم في ارتياح.

لن تعرف من هو ضحيتك إلا عندما تدخل غرفتك. قد يكون الضحية شخص غريب عنك، ولكن أيضاً قد يكون صديقك، أو شخص تحبه. ساعتها، ستشعر بالاشمئزاز، لا بسبب التعذيب نفسه، بل بسبب تلك النشوة التي انتابتك قبل ولوجك إلى غرفتك. عندما علمت أنك لن تكون الضحية، حينها تدب بداخلك سعادة غريزية مستقلة عن ضميرك، ومن ثَم ستخلق بداخلك شعوراً بالقرف يظل ملازماً لك لوقت طويل جيداً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل السادس عشر

ثيودور

1

أغلق ثيودور باسبيك كتاب "يوروبا 02"، منزعجاً. أزاحه بعيداً، إلى آخر ركنٍ في طاولته، وعاد من جديد إلى كتبه التي خطط أن يقضي يومه في مطالعتها.

قال أحد الناجين من معسكرات الاعتقال: "البشر العاديون لا يعرفون أن كل شيء ممكن." وضع ثيودور خطاً تحت هذه الجملة.

في صفحة أخرى، قرأ:

"تعرف أحد اليهود المفرج عنهم من باخينفالد[1] ذات مرة على أحد زملاء المدرسة السابقين بين رجال "اس. اس"[2] الألمانية، الذي منحه شهادة الإفراج، لم يخاطبه، إنما اكتفى بالنظر إليه. قال الرجل بعفوية: يجب أن تفهم، تعطلت عن العمل لخمسة أعوام. بإمكانهم أن يفعلوا بي ما يشاءون."

---

(1) مدينة ألمانية

(2) وحدات الحماية الألمانية، التي أسسها أدولف هتلر كوحدات حراسة صغيرة في ابريل من عام 1925، ثم صارت تابعة للحزب النازي، ترتدي الزي الأسود. ترأسها هينريتش هيلمر، ووصل عدد أفرادها لخمسين ألف فرد حين وصل النازيون للحكم عام 1933.

دوّن ثيودور هذه الجملة في دفتره. الرابط بين البطالة والرعب. عليه أن يتصفح سجلات معدلات البطالة في فتراتٍ مختلفة من التاريخ. يطرح هذا سؤالاً، إذن: منذ خمسة قرون، ماذا كان مفهوم البطالة؟ من السهل أن نعرف الفارق بين ما كان مذبحة وما لم يكن. ولكن البطالة، كمفهوم، تبدو أكثر غموضاً. يمكن إخفاء الموت، بالطبع - الملايين من المقابر الجماعية تنتظر اكتشافها - لكن ما إن تظهر للنور، يبقى الموت حقيقة لا تترك مجالاً للتفسير: فالجثة هي الجثة. البطالة، على الجانب الآخر ... كم شهر أو سنة من البطالة يجب أن يمروا قبل أن يصبح المرء مؤهلاً للصفة؟ ماذا عن رجلٍ يعمل ساعة واحدة فقط كل أسبوع؟ ربما سيكون من المستحيل أن نصل إلى معيار مقبول عالمياً. ومع ذلك، كان لزاماً على ثيودور في هذا المشروع أن يحدد رابطاً بين البطالة والرعب - أثرهما، الذي يمتد عبر شرائح مختلفة من المجتمع: إلى أي مدى قد يتعاطف الشخص العاطل مع ضحايا الرعب؟ - إذن، هناك احتمال كبير أن يلتحقوا، في النهاية، بصفوف المستبد. لدى ثيودور حدس ما - أنه على الرغم من عدم امتلاكه للبيانات اللازمة لدعم فرضيته بعد - ربما كان هناك عاطلون على جانبي السؤال: الجناة والضحايا. من القسوة أن نفكر في هذا الأمر، إنتاج الرعب فعل ... كما هو الأمر مع ضحايا الرعب. نشاطان، فعلان. محور - مسلمة - ربما بسيطة لحد ما؟ - بدأت الفكرة ترتسم في عقل ثيودور. الرعب عمل يضع نهاية عمل؛ نشاط نافع، مهما كان، فهو أمرٌ خرج عن مساره لرغبةٍ فطرية في البقاء استدعاها الرعب ... فطرة البقاء، أو ربما تلك الرغبة الأخرى، كإنسان: رغبة القهر، التوحش. لا أحد يخبز رغيفاً وهو قيد التعذيب، قد تخبز رغيفاً أثناء التعذيب، إذا تماديت في نكتة

مريضة ... كان هذا واضحاً؛ في الحقيقة، واضح على نحو مؤلم ... لكن كان المهم اكتشاف ما إذا كانت مجموعة من الضحايا والطغاة - إذا لم يتم توظيفهم على النحو المعتاد - سينشطوا قبل بداية رعب جديد؛ وإذا ما كانوا، كما اعتقد ثيودور، سيركزون على شيء آخر. هل يمكن أن يتحول شخصٌ ما، منخرط بصدق في نشاط بناء، ولنقل "غير ضار"، إلى قاتل بين ليلة وضحاها؟ هذا هو السؤال... وقد صاغه ثيودور على النحو التالي: هل بإمكان شخص مغرم بجمع الطوابع، أو إمكانية اكتشاف مذنب جديد، يسجل بإسمه، أن يتحول بين صباح والذي يليه، إلى محرك لإنتاج الرعب؟

عاد ثيودور إلى أرندت[3]: ...ستة مليون يهودي، ستة مليون إنسان، عاجزون، وفي أغلب الأحيان دون جرم، يزجون نحو الموت. الطريقة المتبعة كانت الرعب المتراكم... وأخيرا جاءت مصانع الموت - مات الجميع، الصغير والكبير، الضعيف والقوي؛ ليس كبشر، رجال ونساء، أطفال وبالغين، فتية وفتيات... بل تم وضعهم في أحط وضع يمكن تصوره في الحياة نفسها... كالماشية....

أخذ ثيودور نفساً عميقاً. وبينما كان يحاول استعادة عافيته لاستكمال قراءته للكتاب، سمع صوتاً يهمس باسمه. جاء رجل نحوه، وانحنى صوبه قائلاً:

---

(3) حنة أرندت هي منظرة سياسية وباحثة يهودية من أصل ألماني متخصصة في الفلسفة.

دكتور ثيودور باسبيك؟

نعم؟

والدك ... إنه يحتضر.

الفصل السابع عشر

كاس وهينرك

1

أتم كاس باسبيك عامه الثاني عشر، ولم يسبق أن خرج للشارع وحده في هذه الساعة المتأخرة من الليل. شعر بالخوف يسري في جسده ... كل الآباء يقوبون لأبنائهم "ليلة سعيدة! أحلام هنيئة!" بعد إنهاء قصة قبل النوم... ولكنه لم يكن حلماً هنيئاً، ولا الليلة، هذا ما اكتشفه كاس، لم تكن سعيدة على الإطلاق ... كانت الليلة مريعة ... وربما شريرة.

انحنى كتفاه في محاولة منهما لمقاومة البرد: غادر متعجلاً، لم يكن المعطف كافياً.

خرج وحده في الشارع، إنه مجرد طفل، لديه مهمة: أبوه، ثيودور باسبيك، طبيب محترم، غادر المنزل في منتصف الليل، وتركه وحده. مهمته كانت أن يسيطر على خوفه، وأن يجد والده.

تخيل كاس لقاءهما. سيعاتب ثيودور على الملأ: سيصرخ في وجهه، ويطالبه بالاحترام. لم يكن تصرفاً مناسباً، ما فعله ثيودور، أن يترك ابنه وحيداً. إبنه لم يتجاوز الثانية عشر من العمر، بساقين نحيلتين. كاس على يقين من أن ما فعله ثيودور غير قانوني بالمرة.

سار كاس بخطواتٍ ثابتة غير معتادة. من الواضح أنه تجاوز نحافة ساقيه وغضبه. مشى متهاوناً، بخليط من مشاعر الخوف والترقب، وأبرزت مشيته إعاقته؛ لو شهده شخص فارقه النوم، لغلبه الضحك.

ولكن بدا هذا الاتساق التام،الغير طبيعي للشوارع،مريحاً إلى حد ما. كما كانت خطوات كاس، التي اتخذت مساراً مستقيماً نسبياً، كأنها خطوات حيوان أصابه الارتباك، داخل قفص: في كل خطوط المدينة المستقيمة،التي خلت شوارعها تقريباً، الآن، ساد شعور بالأمان... يوحي بضعف احتمال وقوع حادث مخيف في هذه الأجواء الخادعة.

بدا كاس متهوراً. كان هذا نتيجة المبالغة في الحماية التي عاش في ظلها، كان مصدرها كل عائلة باسبيك، رغم أنها من خلال والده في الغالب. إثنا عشر عاماً فترة أكثر من كافية ليتعلم الحيوان كيف يواجه الحياة، لكن في حالة كاس، لم تكن فترة نافعة تماماً؛ هناك في الليل - يعيش الصبي أجواءً غريبة تماماً، حيث ضاعف الظلام احتمالية وقوع مكروه الآف المزات - كاس نفسه لا يفهم حتى أن سيره وسط الطريق أسلم من المشي على الرصيف، فطالما اتسعت المسافة التي تحيطك، زادت احتمالات شعورك بالخطر مبكراً. كاس صبي ساذج، وبعبارة أخرى: في الرابعة صباحاً، وسط المدينة، ظل قلقاً من أن تصدمه سيارة، أكثر من قلقه من الضرر الذي قد يجلبه شخص آخر.

واصل كاس سيره. لا مزيد من الأسئلة لطرحها ليلاً. حركات جسده، رغم إثارتها للضحك، كانت آلية، تعدل من نفسها ذاتياً. حاول في حيرة أن يفكر فيما يمكن قوله لوالده ليعاتبه على تصرفاته. الأب الذي نسيه.

كلما اندفع كاس إلى الأمام، بدأت ساقه اليمنى تتثاقل؛ ولم يكن معتاداً على هذا الجهد المتواصل. لم يهتم الفتى بجسده منذ أعوام ... على الرغم من تشجيع والده، والعلاج الطبيعي الذي تلقاه، وحصص الرياضة البدنية التي حضرها. كان يعرف أنه لن يصير رياضياً أبداً، وذلك لأن قدماه - ولسانه كذلك الذي شكل الإعاقة الثانية - كانتا حالة ميؤوس منها بالنسبة له. حاول كاس أن يعيش وكأنه بلا جسد. لم يكن مهتماً حتى بحركات ومآثر القوة البدنية التي كان يتفاخر بها الفتيان... فكلها حركات تمنعه إعاقته من تقليدها، مثل ثني إصبع من أصابع يده للوراء. تعلم منذ نعومه أظافره أنه بحاجة للحفاظ على جسده من أعين الناس - تعلم إخفاؤه. ومع الممارسة نجح في إخفاء جسده حتى من نفسه.

كان متعباً بالفعل، وبالنتيجة، أضطر لإبطاء خطواته، وهو على بعد مسافة ليست بالقريبة عن وسط المدينة حين قابل هينرك أوبست.

هينرك أوبست: متأثراً من بعيد بقصة هانا عن عميلها الصبي الذي رافقها دون أن يرى في تصرفاته أي تناقض بين ميوله الدينية والجنسية. هينرك أوبست: لازال مشغولاً، بما يمكن تسميته بـ"الشهوة الإنسانية" - المرعبة، والحادة هذه الليلة بالذات، ربما مؤلمة - تطعنه في صدره. نعم، انشغل هينرك بمراقبة خطوات كاس المتعثرة لعدة دقائق، وخطواته المتعثرة. عندما وقعت عليه عيناه أول مرة، ظن أن الصبي بالتأكيد تعرض للوقوع - ربما لحركته التي تشبه الزحف - لكن سرعان ما فهم أن الفتى مُعاق. لاحظ قدمي كاس النحيلتين، النحيلتين جداً في الواقع.

قال هينرك أوبست: "مساء الخير، أيها الفتى."

توقف كاس. هذا أول رجل يقابله في الشارع منذ خروجه من منزله بحثاً عن والده. ربما يساعده في سعيه. حاول كاس أن يقول كلمة، ولكنها خرجت على شكل *بلوفشكرك*.

أشاح كاس بالكلمة بعيداً و هز رأسه معتذراً. وقال بكل تركيز: باسبيييييك مشيراً إلى صدره، وكأنه يحاول شرح ما يقول بلغة أخرى. ثم نجح في قول "أبي". "باسبيييييك."

مطّ كاس الاسم، مشوهاً إياه، بمقطعين صوتيين طويلين. لم تكن الإعاقة التي يعاني منها في الكلام تلعثماً - فتشكيل لغته المشوهه لا يتشابه مع ما يشكو منه الناس في العادة - ولكن في بعض الأحيان، في بعض الكلمات، تتشابه التأثيرات.

سأله هينرك: تبحث عن والدك، أليس كذلك؟

أجابه كاس بمط في النطق ننعم.

ردّ عليه هينرك واضعاً يده على رقبة الفتى بحنان: "ليست فكرة سديدة أن تسير في الشارع في هذه الساعة المتأخرة من الليل". ثم أضاف: "هيا بنا"، ثم رافقه قائلاً: "أنا متأكد أن والدك ربما كان بمكان ما قريب."


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثامن عشر

ثيودور وكاس

1

قام ثيودور باسبيك من مقعده في المكتبة فجأة.

إنه والدك ... والدك يحتضر.

وضع ثيودور الكتب والمستندات التي كان يطالعها جانباً ثم وضع أشياءه من جديد في حقيبته

قال: "هيا بنا."

لازم "توماس باسبيك"، والد ثيودور، المستشفى لعدة أشهر، وبذلك، لم تكن الأخبار بمثابة مفاجأة لثيودور... بل مصدر إزعاج بالأحرى، لأنه عطّله عن بحثه. وبرغم ذلك حاول ثيودور التخلص من ضيقه في شيء آخر، رسم مشاعر أخرى على وجهه قبل أن يلحظ أحد.

سأل ثيودور الرسول، الذي عرف نفسه بانه يعمل بالمستشفى: هل مازال قادراً على الكلام؟

أجب الرسول: أجل ، طلب منّا أن نستدعي ابنه، الطبيب.

كانت والدة ثيودور قد وافتها المنية العام الماضي. والآن من الواضح أن موعد أبيه قد حان هو الآخر. آخر من يحمل دم عائلة باسبيك، التاريخ

البيولوجي على وشك الاختفاء - كان هذا سبباً ربما للارتياح. كلما اختفى قدر من تاريخه الشخصي الخاص، كلما كان ثيودور بمقدوره التركيز على التاريخ العام، تاريخ البشرية، تاريخ العقل البشري، أمراضه. بالنسبة لثيودور، فإن وفاة أبيه لا تعادل الأثر المدمر للتدابير المنزلية الضرورية، تنظيم شؤونه: خادمة تزيل قطعة أثاث قديمة من الطريق، قطعة ظل يتعثر فيها لعقود.

قال الممرض لثيودور: "لن يعش والدك أكثر من ساعات قليلة."

"أجل" ردّ عليه ثيودور .. "مأساة."

بينما كان ثيودور متجهاً صوب المستشفى، شعر باضطرابٍ غريب في منتصف الشعور بالتماسك الذي سببه خبر موت والده. صار الاضطراب أقوى تدريجياً: نسي ثيودور ابنه كاس.

توقف ثيودور

"ابني كاس في المدرسة. إنه في السابعة من عمره. لابد أن أذهب لإحضاره. ومن هناك سنتوجه للمستشفى مباشرةً."

"لن يبق والدك طويلاً."

قال ثيودور سريعاً: "سأذهب لإحضاره قبل أي شيء. ومن هناك سنتوجه للمستشفى مباشرةً."


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل التاسع عشر

ثيودور وكاس وتوماس

1

دخل ثيودور وابنه كاس إلى غرفة توماس باسبيك، رجل - قبل ثلاثين عاماً - كان أحد أكبر المشاهير في البلد. الآن يرقد ميتاً بكل بساطة.

قبل ثلاثين عاماً، عندما كان توماس يريد التحدث لشخصٍ ما، لم يكن ما كان لينتظر أبداً. كانت المدينة كلها كانت تحت تصرفه - وكأن الجميع قد وفروا كرسياً إضافياً على طاولاتهم، حال قرر توماس أن يمنحهم شرف حضوره.

كان توماس من ضمن الساسة الأكثر تأثيراً في البلد. حجر الزاوية في تاريخه المهني الصفة الأبرز في شخصيته وهي العناد: طريقة نالت الثناء تدريجياً كلما مر عام على وجوده في وظيفته؛ أثبتت مثاليات وتحالفات منافسيه - التي بدت من قبل فولاذية - أنها واهية كخرقة بالية أمامه. عصامي دوماً: لم يلجأ لأحدٍ يوماً طلباً للمساعدة، ولم مساندة أحد - لأنه لم يكن ليقبل أبداً أن يكون أحداً نداً له. عند مواجهه الهزيمة، كان ببساطة يضاعف من جهده، ليعود أقوى مما كان - ليكتشف أن خسارة معركة هنا وهناك أمر يجعله أكثر شعبية، بمرور الوقت، ليصبغ كلماته بمصداقية تحققت بعد عناء طويل. ومع مرور السنين، لم يذق توماس

الخسارة، إلا بهامش ضئيل، الانتخابات، حتى جاء اليوم الذي فاز فيه بمقعد عمدة المدينة، وحينها كسب المدينة كلها. وبعد خمس سنوات، أعلنته جريدة المدينة الأولى "رجل العام".

للرجال والنساء أدوارٌ محددة في عائلة باسبيك: يعمل الرجال للحصول على الأشياء، أما النساء فيعملن للحفاظ عليها؛ كأفراد فصائل مختلفة في جيش محتل. أحدها يخرج للغزو، والأخرى عليها أداء المهمة الصعبة والبسيطة وهي أن تحتفظ بالأراض التي تم الاستيلاء عليها... وبعبارة أخرى، كان على النساء في عائلة باسبيك مسؤولية الحفاظ على اسم العائلة - شهرة خالية التشويه، كما يقولونها. لن تجد امرأة في عائلة باسبيك تخجل من قول: عليّ بالحفاظ على اسم زوجي دون شائبة. ولم الخجل؟ النجاح هو النجاح.

2

والدة ثيودور، زوجة توماس باسبيك، توفيت قبل عام. مثل زوجها، كانت قد أمضت الشهور الأخيرة في حياتها راقدةً على الفراش - على فراشها، في بيت العائلة. ذات مرة، في تلك الأيام عندما خلدت جدته للراحة الأبدية، رأى كاس شيئاً، بالمصادفة - أمراً لم يستوعبه عقله تماماً.

الحدث كالتالي: كاس، الذي لم يتم بعد عامه السادس، توجه بحماقة صوب غرفة الخادمة - دون أن يراه أحد، فعلها مرات من قبل.فتح الباب قليلاً، ليرى جده، توماس باسبيك، جالساً على فراش الخادمة. كانت رأسها بين فخذيه، تتحرك بطريقة بدت لكاس بشعة.

صرخ باسبيك العجوز في وجهه: "انصرف أيها الأحمق!"

دار كاس، ومن ثم فر.

بعد ساعات، وبعد حوار قصير مع والده، استدعاه ثيودور.

ارتعد كاس من النظرة التي ارتسمت على وجه أبيه، حاول أن يقول شيئاً- بدا كلاماً مبهماً. طلب أبوه أن يقترب أكثر، وحينما أطاعه كاس، ضربه بقوة.

ثم قال: "عليك أن تتعلم كيف تتحدث بشكل لائق."

3

سأله ثيودور: أرأيت؟، ثم رفع ابنه ليرى بشكل أفضل. أرأيت؟ إنه جدك. لقد مات.

هذا اليوم، كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها كاس جده، توماس، من فوق، *كما لو كنت في طائرة هليوكوبتر*، قالها لاحقاً. رقد جده صامتاً، دون حراك، عيناه مغلقتان، ذراعاه متقاطعتان على جذعه: اليد اليمنى فوق اليسرى.

كاس، مرفوعاً في الهواء، بين يدي والده، حائراً من مظهر الجثة، أشار إلى جده، وسأل (بشكل مشوه كالعادة):

- هل هو خائف من شيء؟

الفصل العشرون

توماس وثيودور وكاس

1

عندما أخبر ثيودور والده بعزمه الزواج من ميليا - إحدى مرضاه العقليين - كان رد فعل توماس، بعد صمت طويل: "تلك المرأة ستدمر سمعتك."

شعر توماس باسبيك بنوع من السعادة عندما تحققت نبوءته.

أولاً وصلته أخبار دخول زوجة ابنه مصحة جورج روزنبِرج. وبالطبع لم يكن هذا الخبر مفاجئاً بعد الخلاف الذي شهدته حياة الزوجين.

قال توماس: إنه الحل الوحيد.

بعدها بأشهرٍ، انتشر خبر طلاق الزوجين وحمل ميليا في نفس الوقت.

ترك ثيودور والده يتصور أن الطفل ابنه الشرعي، ولا حقوق لأمه. وبميلاد الطفل، استلمته عائلة باسبيك على الفور.

لم يمر وقتٌ طويل حتى فهم الجد أن ثمة شيء ما خطأ بحفيده - ذلك الحفيد الذي طالما حلم به ليحمل اسم العائلة. كان ثيودور ابن توماس الوحيد، لكنه كان نقوصاً ... ولم يكن مثالياً. مثل كاس أمل العائلة الوحيد، إذا ما كتب للأجيال القادمة أن تتعرف على عظمة آل باسبيك.

"لا يمكن أن ينتهي نسلنا بشخص يعكف على دراسة المجانين"، كان توماس يقول لابنه: "سواء كان عبقرياً أم لا. أقل ما يمكن، أن ينتهي برجل يدرس جنون الملوك والأباطرة ..."

تغيّر موضوع بحث ثيودور عبر الوقت من المداواة العملية إلى أمراض الشر عبر التاريخ، وربما كان ذلك بتأثيرٍ من والده. عندما وصف ثيودور موضوع بحثه لوالده أول مرة، شارحاً فرضياته الخاصة بتطور العنف، انفرجت أسارير أبيه وقال:

"هذا موضوعٌ يليق باسم باسبيك!"

ولكن ثيودور بإمكانه فعل أكثر. كلما كبر كاس، كلما ازدادت خيبة أمل جده توماس فيه، على الرغم من المشاعر التي كنّها له. وعندما بلغ كاس الرابعة من عمره، قرر توماس أن المواجهة واجبة. جلس هو وابنه ثيودور في غرفة المعيشة منهمكان لساعتين كاملتين في لعب الشطرنج - شيء ما يستدعي منافسة عنيفة بين الرجلين. ومع الورطة التي لم تحل بعد، ترك توماس اللعب فجأة، وقف، توجه صوب دولاب الشراب وملأ كأساً لنفسه.

قال باسبيك الكبير: "ثيودور، أنت ابني الوحيد. انظر لوجهينا: وجهك ووجهي. هناك عشرات الطرق البسيطة والواضحة لنميز بها الغريب عن ابن العائلة ... طرق بسيطة، طرق واضحة. وجهانا، على سبيل المثال، لا تترك للشك مجالاً بأي حال. تبدو مشابهاً لي تماماً منذ ثلاثين عاماً. وصدقني، أنا فخور بما كنت أبدو عليه منذ ثلاثين عاماً."

وقف ثيودور هو الآخر، احتراماً لأبيه. كان لأبيه كاريزما امبراطورية، فجأة: تشامخ وفرد ظهره - كنوع من استعراض القوة - حاملاً كأسه كأنما الكأس ليست جديرة بلمس يده. بدا أن الغضب تملك توماس باسبيك.

قال العجوز أخيراً: "ثيودور، الفتى ليس ابنك، الأمر واضح. حاولت أن أحذرك منذ وقتٍ طويل، منذ سنواتٍ مضت... قلت لك حينها أن تلك المرأة ستدمرك. وقد فعلت ذلك بالضبط. كل من في المدينة يعلم هذه القصة. عندما تسير في الشارع بصبحة كاس، يسخر الناس منه ومنك."

صمت طويل.

قال توماس: "أحبه، لكنه ليس حفيدي. حان وقت إصلاح خطأك. هناك أماكن مختلفة تستطيع إيداعه فيها. أماكن فيها أطفال مثله، سيلقى فيها معاملة أفضل، أفضل حتى مما قد تقدمها للفتى المسكين."

شرب توماس ما تبقى في كأسه.

"لازلت في البداية، عموماً. أنت شخص معروف. دراستك عن الصحة والبحث عن الرب - أو أياً ما كانت - جذبت الكثير من الاهتمام. صحيح، أن لك زملاء ينتقدونك، ولكن من الواضح أنهم مرعوبون. تصرفاتهم تلك تخبرك بأنك لست مجرد منافساً لهم: بل أنك ستصير أفضل منهم. لماذا تعطيهم الفرصة؟ لمَ تساعدهم على إلحاق الضرر بك؟ هل حقاً تعتقد أنهم سيترددوا في استغلال هذا الضعف؟ انظر: أنا لا أدعي بأني أعرف ما يدور بخلد الآخرين، أيها الطبيب، لكنك تعرف أني أمتلك خبرة تعدت سنوات عمري، ولكن دعني أوضح الأمور لك بلغتك، على نحو يمكن

تقديره ... لقد رأيت المئات يخونوني أمام ناظري، وأكثر منهم يطعنوني في ظهري. ونفس الأمر سيحدث لك...

تذكر، ثيودور، أنك فرد من عائلة باسبيك. عليك أن تميز نفسك عن الآخرين - ولن يساعدك أحدٌ في ذلك. كانت والدتك لتفعل أي شيء لأجلك، بالفعل، مهما كان، ولكنها في قبرها الآن، ولن تقوم أبداً. وأنا كذلك لم يبقَ من عمري الكثير- وعليك أن تعلم أنني لن أجازف بما بنيت لإنقاذ رجل من عماه وحماقته ... حتى لو كان ابني."

"عليك أن تتأكد تماماً أن عملك سيستكمل من دون تدخل. تلك المرأة التي أخطأت بالزواج منها ... حطمت حياتك إلى حد ما، ولكن يمكن انقاذ ما تبقى منها. أنت تركتها ... رائع. لقد فعلت ما تستطيع لكي تمحو هذا الخطأ. لكن لازالت هناك وصمة ... الفتى. مازال الوقت مبكراً: إنه صغير. لم يدنس الفتى كل شيء بعد. لا تتخيل أن زملائك سيعجبون بتربيتك لطفلٍ معاق ليس من صلبك. ما سيقولونه هو أن امرأة مجنونة خانتك مع رجل آخر مجنون. هذا كل ما في الأمر. لقد خُلق آل باسبيك لنترفع عن الناس، لا لنكون مادة للسخرية."

2

كاس، كأي كائن حي آخر، يمكنه أن يتحمل المعاناة ولكن لحد معين. ذات مرة، بينما كان ثيودور يدّعي النوم في غرفة صغيرة مجاورة، رأى ابنه، الذي كان في الرابعة من عمره، حينئذ، يجلس بمحاذاة جدته - التي أصابها العمى التام - على فراشها. طاف كلب العائلة بينهما، بينما جدة كاس العجوز تمسك بعكازها عديم النفع بيدها، تداعب الكلب، الذي أحست بأنه يتمسح بساقيها. تداعبه من وقت لآخر، محاولة نكزه بعكازها، لكنها لا تصيبه، فتنادي اسمه برقة لتجذبه نحوها من جديد. ضحك، كاس، ذو الأربعة أعوام، على السيدة العجوز، التي لا تعرف مكان الكلب، ثم، ولسبب غير معلوم، تسلل خارج السرير متسلقاً خلف ظهر جدته، ليضم قبضته، ويضربها على ظهرها. شاهد ثيودور كل شيء، مانعاً رغبته في التدخل؛ اكتفى بالبقاء صامتاً عيناه نصف مغلقتين، يراقب. صرخت جدة كاس صرخة بسيطة بفعل لكمة كاس، الذي ضحك، وانسلّ بعيداً عن السرير، ثم صرخ بشيء غير مفهوم وهو يعبر الحجرة. لم تفهم الجدة شيئاً مما قال، ولكن ثيودور فهم ما كان يحاول ابنه قوله بطريقته المتلعثمة، بما كان يحمل في طيات صوته من سخرية، كان الولد يصيح: *إنه الكلب ... إنه الكلب!*

حاولت والدة ثيودور بكل قوتها أن تحدد شخصاً ما، أي شخص بعصاها، ملوحة بها إلى أعلى وإلى أسفل، وفي كل إتجاه استطاعت. ربما كانت تعلم، بداخلها، أن حفيدها و الكلب لم يكونا قريبان بقدر يسمح لهما بفعلها، ولكن نظراً لحالتها الصحية، فقدت صوابها، ملوحة بعصاها

بقوة تُحسد عليها، على نحو قد يسبب أذى حقيقي - تضرب الكراسي القريبة، وتثير الغبار بضربها السجادة.

ومع ذلك، شاهد ثيودور ابنه ابن الرابعة يتسلل بالقرب من منطقة الخطر - ساحباً نفسه على قدميه النحيفتين بصورة غير طبيعية - بينما يعود مجدداً إلى السرير من وراء ظهر جدته، ثم - وأثناء محاولتها التقدم، في محاولتها لاستيعاب ما يحدث لها - لكمها بكل ما أوتي ذراعه الأيمن من قوة، مجدداً في ظهر السيدة باسبيك العجوز ... وخلال كل ذلك ارتسمت على وجهه أمارات الرضا البشع.

3

كان ثيودور يضع فرضية حذرة بخصوص احتمالية تأثير البطالة على غريزة الإنسان تجاه العنف، إضافة إلى غريزته كذلك تجاه مضاد العنف - أي الطيبة أو الشفقة، التي تتفجر بصورة غامضة لدى أناس معينين في أوقات معينة، مما يجعلهم يتخلون عن مصالحهم الشخصية في سبيل الصالح العام. شغل هذا بال ثيودور بينما كان يحمل ابنه ليريه جثة أبيه على فراش الموت - كاس حينها كان ابن السابعة، وقد غاب يومها عن المدرسة ليشاهد جده وهو يحتضر- فكرة أن للشر والخير صلة وثيقة بالخمول والملل، وبالمثل، يولّد ذلك النشاط المحدد، الخاص، الموَجه فردياً، ما يمكن تسميته بالسلوك الحيادي من الناحية الأخلاقية تجاه العالم. وإن صحت هذه الفرضية، فإن نشاط بسيط - العمل، على وجه الدقة - يمكن توظيفه كوسيلة لتجنب أهوال التاريخ، مذابحه الرهيبة؛ رغم أنه، في نفس الوقت، قد يقبل المرء فكرة أن ذلك الانشغال الدائم قد يؤدي إلى زوال الظروف المواتية لظهور أي ايماءات للعظمة، البطولة، أو النبل ... ومن ثم يختفي الرجال العظماء المبجلون مثلهم مثل سفاحينا العظام. ولكن، وعلى مدار القرون العشرة الأخيرة، لم تكن ما يمكن تسميتها أفعال الخير بقدر أهمية أفعال الشر الخالصة: فالأخيرة هي وقود التاريخ، التي تدفعنا للأمام، في حين أفعال الخير ظواهر معزولة. يعتقد ثيودور بعدم وجود دوافع أخلاقية أو لا أخلاقية: هناك فقط دوافع فعالة تحرك الأشياء وأخرى لا تفعل. على مدار التاريخ، لم تقدر القداسة على إنجاز أي شيء - وكان ذلك بالنسبة لثيودور إدراكاً هاماً. يبدو أن التقدم يقوم بشكل أساسي على سرعة الشر. شعر برضا كبير بهذه النتيجة، حتى

أن الموظف حينما جاءه بخبر وفاة والده توماس باسبيك منذ دقائق قليلة قبل وصول ابنه، قال بحزم ودون تردد:

- رائع ... رائع!

الفصل الحادي والعشرون

هينرك وكاس وإرنست وميليا

1

الفتى البالغ من العمر اثني عشر عاماً، الذي لا يمكنه الكلام أو المشي بشكل سليم، والذي يهيم في منتصف اللليل باحثاً عن والده، يشعر بخوف متزايد. أمسكه الرجل، ذو الهالات السوداء العديدة أسفل عينيه، ثم جره من رقبته، ومن شدة الرعب، عجز كاس عن القيام بأي رد فعل.

سحبه هينرك إلى شارعٍ جانبي، معتم تماماً.

والدك اسمه باسبيك...أليس كذلك؟

ارتعد كاس. لم يكن هذا الغريب بالرجل الطيب، ترك الإثنان ذلك الشارع، الجيد الإضاءة، العامر نسبياً بالبشر، حيث تقابلا. لكن، وجد كاس أنه لا يزال يفكر بأبيه، ثيودور باسبيك. لم يكن يحق لأبيه أن يتركه وحده؛ خصوصاً أن ثيودور يعلم أن ابنه قد يحتاجه في منتصف الليل. خان ثيودور ابنه. لن يسامحه كاس على ذلك. يعتقد الفتى أنه لم يكن تصرفاً ذكياً من رجل ناضج أن يختفي في منتصف الليل هكذا.

استمر هينرك في سحبه للفتى الصغير، برفق شديد، خلف المبنى. ساد الظلام الآن. اندهش كاس من نسيانه لوم أبيه محاولاً على استحياء أن

يخفف من وطأة قبضة هينرك على رقبته. وما كان من هينرك إلا أن ألقاه على الأرض.

حاول كاس جاهداً أن يصرخ.

2

في نفس التوقيت، إرنست بجوار كابينة الهاتف، جاثماً فوق ميليا. استعادت الوعي لتوها.

تحسّس إرنست خدّها بسبابته، برفق، قرب عينها اليمنى. مخاوف الليل عنيفة... ضوء باهت، لكنه يكشف الأشياء كما هي.

أيقنت ميليا أن الصوت الذي سمعته على الهاتف تجسد أمامها في جسد ... جسد يلمسها الآن. كيف حدث ذلك؟

آمنت ميليا أن كل ما في حياتها قد مسه تدخل إلهي. وجدها إرنست لأنه اتخذ طريقاً للسفر غير مباشر إلى حياتها مجدداً، بتوجيه إلهي. "ستعلن روح الإنسان العادل الحقائق بوضوح أكثر من سبعة حراس".

أجل، صارت الحقائق واضحة - تجلى الرب فيها." قالت ميليا: إرنست، عندما لامستني أناملك، أو ما شابه، تعرفت على يدك من قبل أن تراك عيناي."

نظرت إليه بهدوء، متفحصة إياه بعينيها: بينما إرنست يرتعد كالعادة، يهز رأسه من ناحيةٍ لأخرى، كالمجنون. استراحت، اكتشفت، فجأة - أنه من الصعب أن تكره نفسك، صعب أن ترى نفسك بلا قيمة، وخصوصاً عندما ترى حبيبك يسرع إليك في محنتك. حبيب من الماضي، لا أقل من ذلك. بجانب ذلك، رأت ميليا أن الكراهية أمر خطير ... أخطر حتى من الحرب. فقد سمعت ثيودور يقول من قبل: "عندما تنتهي الأسئلة تبدأ الكراهية".

سألت ميليا إرنست: أين كنت؟

ربما كان خياراً ضعيفاً. وكما انطلقت الأسئلة، كانت حذرة، فضولية، وربما عنيفة. أين كنت؟ هل كانت تعني: ما الشوارع التي سار بها حتى وصل، البيوت التي قطنها قبل ذلك؟ ولكن سؤالها كان سؤالاً وجودياً لا جغرافياً. نحن لا نتحدث عن نزهة خلوية.

ولكن الأمر كان واضحاً على وجه إرنست العصبي، الذي لم يتغير إلا قليلاً منذ آخر لقاءٍ بينهما. لم يذهب بعيداً.

فكرت ميليا: "إن نسيتك، يا أورشليم، تنسى يميني..."[4]

تعانقا.

(4) السطر الخامس من المزمور المائة والسابع والثلاثون من سفر المزامير - الكتاب المقدس - العهد القديم

الفصل الثاني والعشرون

جومبرز وميليا ولانز وجوديك

ووسيليز وجادا وثينكا وويتولد

1

عندما استدعى دكتور جومبرز ميليا إلى مكتبه، كان يمسك بكراسه الأسود، يسجل فيه - بلا انقطاع، آلياً، كعادة عصبية - كل تفصيلة هامة عن سير حالة "نزلاءه".

كانت ميليا قد وضعت مولودها منذ أسبوعين. احتفل العاملون في المطبخ تخليداً للحدث: أخذ الطبّاخون يحتسون النبيذ من الزجاجات القليلة التي بحوزتهم - والتي لم تكفِ حالة الإثارة الهائلة التي كانوا فيها - حيث أخذوا يتصادمون بالطاولات ويسخرون من أنفسهم. كان عذرهم الاحتفال بالمولود الجديد، طفل حقيقي من "مواليد المصحة"، أول حالة تعرفها المصحة - ومع ذلك كانت تلك الاحتفالات بعيداً عن أنظار موظفي المصحة المتواجدين، غير رسمية؛ فهم لا يزالوا موظفي جورج روزنبرج، على كل حال، والمسؤولين عن "التزام الأصول" داخل المصحة حسب تعليمات مديرها. ولكن: كان معهم كل الحق في الاستمتاع بوقتهم قليلاً طالما أن الأمر لا يخرج عن الحدود. أخيراً انكسرت رتابة مصحة جورج

روزنبِرج ... وبالنسبة للموظفين العاديين، كان الأمر يستحق الاحتفال بالفعل.

من ناحية أخرى، كان المنفذ الإبداعي الأخير للعاملين في المطبخ هو "التقديم" وكيفية نقل خبراتهم الأكاديمية في مجال الطبخ إلى الأطباق المقدمة لكل مريض على حدة وقت تقديم الوجبات. حتى أنهم في بعض الأحيان كانوا ينالون الاستحسان لمعاناتهم: فيقولون لهم: أحسنتم ... طعامٌ طيب. كان الناس يتعاملون مع مسألة الطعام بكل احترام - وكأن الطعام رجلٌ عجوز اشتعل رأسه شيباً ويحتاج للمساعدة من غيره.

لا شيء في المصحة - بما في ذلك الطعام - كان مستثنى من نظام مصحة جورج روزنبرج: فالسكون مفروض في كل أرجاء المكان، يمتد إلى كل غرفة على حدة، ولا ينتهي بانتهاء جدران المبنى الرئيسي، ولكن يمتد على مد بصر المريض من النافذة المدَعَمة لغرفته ؛ وكأن المشهد العام في المصحة رسالة من المدير توحي بالانضباط والاتزان في كل شيء: من غير المسموح أن تمعن النظر في شيء ما، رجاء، أنظر في اعتدال؛ كأن المريض يجاهد محاولاً أن يرى ما بالخارج؛ لتبدو الرؤية كجهد له وطأته على الجسد، يجب منعه. بالفعل كان كل شيء في المصحة يعمل بموجب قواعد القيد والاحتواء: فالعالم خارج المصحة يتسم بالفوضوية وصبيانية فضائحه، ومن ثم لا يتماشى هذا الجو مع ما وضعه مدير المصحة للمرضى من لوائح تنص على الوقار والنضج والضبط - لوائح فرضها المدير على مرضاه والعالم المحيط به في دائرته.

أخذ أحد المرضى يقول ويكرر: العالم مبتل بالخارج!

عندما تمطر السماء تتجمع بعض قطرات المياه بين قطع البلاط غير المستوية على سطح المصحة، وتتسرب إلى الأرضية عبر نافذة غرفة الاستراحة بصورة مركزة مفاجئة، وكوميدية بعد دقائق أو ساعات من توقف الأمطار - شيء من الترفيه البسيط (متعة الماء) لمن فاتته إثارة العاصفة الحقيقية بالخارج. كانت تلك البلاطات المتركزة كلها في جانب واحد من المبنى - قبل مجيء الطفل - أحد مظهري انعدام الانضباط، في ظل الضبط والربط اليومي: أو تنازلاً لفوضى الطبيعة التي ردت بعاصفة تلو الأخرى خلقت بها حوضاً أو بركة من المياه فوق سطح المصحة، وكان ذلك بمثابة تهديد بوقوع ثورة ضد الركود البشري القابع أسفل سطح المصحة.

مثّلت تلك الشلالات الطبيعية المصغرة ينبوعاً للصحة الحقيقية المتقلبة والعنيفة، لا الهادئة والرتيبة: خلقت صحة في مواجهة الملل والرتابة التي تفرضها الأقراص التي يصفها أطباء المصحة ويقدموها للمرضى أكثر من الطعام - وكأن الأمر اختلط عليهم وصاروا يحسبون تلك الأقراص طعاماً. كان الأطباء في بعض الأحيان يحرمون المريض من الطعام كي تجتاحه الرغبة في تناول بعض الأرز أو اللحم - على الرغم من طريقة طهيهما الفقيرة في المصحة، فالطعام كان يصل المرضى مطهواً بصورة زائدة عن اللازم، مذاقه سيء (الذي صار من سمات جورج روزنبرج)...

وبعيداً عن المياه، كان نظام التدفئة بمثابة شرح آخر واضح في النظام الصارم المتقن الذي رسمته المصحة في أذهان المرضى ... فمنظم الحرارة كان دوماً معطل. سواء كان الجو دافئاً أو بارداً، تظل درجات الحرارة داخل المصحة مرتفعة بصورة سيئة، حتى أن بعض المرضى اتفقوا سوياً

على تقديم شكوى جماعية لإحدى الممرضات. وسألوها: هل تحاولون شويِنا حتى الموت؟

ولكن لا أحد حاول شويهم حتى الموت.

استدعى دكتور جومبرز ميليا إلى مكتبه. ورغم وضعها لوليدها منذ أسبوعين كاملين، إلا أنهم لم يسمحوا لها برؤيته.

قال لها دكتور جومبرز: "أود أن أخبرك أن زوجك ثيودور باسبيك بدأ إجراءات الطلاق. أوصاني أن أخبرك بأنه يتمنى لك التوفيق في حياتك، ولكنه لا يريد أن يراك مجدداً."

من ضمن الأساليب التي يتبعها المرضى في المصحة للتخلص من شعورهم بالوحدة هو تذكير أنفسهم بأنهم خاضعين لمراقبة مستمرة: يكاد ذلك أن يشعرهم بالراحة عند إحساسهم بحرارة العيون الكثيرة التي تراقب ظهورهم، وبعد فترةٍ تعتاد خلالها على ذلك، تسأل نفسك كيف كان حالك بدونهم. وهذا حقيقي، فلم يكون بوسع كل المرضى الانخراط مع زملائهم: فهناك بعض المرضى المستقلين كانوا يسبون الممرضات إذا نظرن إليهم أكثر من اللازم ... الحق يُقال أيضاً أنه في بعض الأحيان عندما كان يجتمع نزيلان سوياً في غرفة الاستراحة، يتحدثان عن كمية الأعداء المحيطة بهما في جورج روزنبرج - ولكن بالفعل كان الجو العام المسيطر على المصحة معبأ بالعدوانية. فلنلاحظ ببساطة مريض مثل جادا، على سبيل المثال، وهو مريض حديث العهد بالمصحة، كان يقول لزملائه: إننا نحارب على جميع الجبهات، وكأن المصحة كانت بمثابة أرض معركة بين بلاد متناحرة تكفي لقيام حرب عالمية ... من الملاحظ أيضاً عدد من المرضى الآخرين يقضون أوقات فراغهم في وضع ما قد نسميه نحن "خططاً تكتيكية": يخططون لتحركات الجنود والجواسيس (المقصود بهم المرضى

والممرضات والأطباء) من غرفة لأخرى ومن حصن لآخر، هذا علاوةً على أمور حربٍ أخرى كثيرة ومريبة... فتلك الأفكار الغريبة كانت تتداخل مع ممارسات يومية مثل غسيل الملابس، والتي كان ينظر لها البعض على أنها هجمات تبيد الأعداء.

كانت ميليا تلحظ بدقة كيف كان دكتور جومبرز يدير الحوار معها. جومبرز كان هو من يبدأ أو ينهي تبادل الحديث بينهما، وهو أيضاً من يقرر نبرة الصوت المستخدمة في الحديث ... جومبرز كان هو من يحدد متي يعلو الصوت ... ومتى على النقيض، ينخفض.

سألها جومبرز: "هل رأيتي هذه اللوحة، لقد تبرع بها رسامها نفسه للمصحة. إنه قضى هنا بعض الوقت، كنزيل، وبعد أن خرج من المصحة بسبع سنوات، وجدته يهدينا هذه اللوحة. هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟ يعني أنه تذكر وقته هنا بمحبة! الناس يحبون العيش هنا يا ميليا."

بدا سطح اللوحة باهتة بعض الشيء في ظل ذراع جومبرز - وكأن أحدهم يمسك كأساً غير شفاف أمام قطعة القماش ليضفي على ألوانها مظهراً باهتاً.

قالت ميليا: "اللوحة قذرة!"

فرد عليها جومبرز: "رجاء، لا تكوني سخيفة."

عندما وصل البريد، كانت مجالس الحرب توقف تكتيكاتها العسكرية، وتتدافع نحو كومة الأظرف؛ عندما لا يستلم أي مريض بريداً، يصيبه/ تصيبها الحنق والضيق طوال اليوم - سلوك مبرر ومقبول طالما في حدود

الطبيعي. يتميز المرضى في جورج روزنبرج بدرجة من الوازع الأخلاقي، وبرغم ذلك كان الوازع رغم هذا: مزعجاً، متداعياً، عابراً، مضطرباً، ذا مبادئ متغيرة بصورة يومية، ومن ساعة أخرى، وحسب الموقف كذلك. ذلك الوازع الأخلاقي المؤقت في صورته العنيدة الفورية - مستقيم كحد الموسى- كان من ضمن الأشياء المعدودة على الأصابع التي تمكن المرضى في جورج روزنبرج من تعلمها: الموسى، كان ليقول لانز - المهووس بأنه مشغول طيلة الوقت - وترد ستونيا الممرضة قائلةً: نعم، لانز، بالطبع... إنه الموسى.

لم يكن ذلك درساً يسهل نسيانه. وليس الشيء الذي يسقط من جيبك ويختفي وفقط. كانت القاعدة الأساسية المعمول بها في المصحة هي: مهما كان ما تشعر به، عبر عنه بوضوح - فليس بإمكان أحد أن يلومك على فرحك، وبنفس المنطق، أي جريمة مبررة تماماً إذا كان سببها الشعور بالحزن.

كان الاستدعاء للبريد مثالاً قوياً لذلك الوازع الأخلاقي الأولي. هو مجرد خطاب - ولكن فور وصوله تحدث حالة من الإثارة بين صفوف المرضى تصل مداها. على كل حال، كان كل ظرف بمثابة يد تعيد كل المرضى للعالم الخارجي ... إلى حيواتهم السابقة. حتى وإن كان الخطاب يتناول مستقبل أحد المرضى، فإنه يعيده لذكراه/ذكراها... بقوله، لا تنسى أنك يوماً ما كنت هنا بالخارج!... أو، يقول له بكل وضوح: لا تنسى! كل خطاب يُرسل إلى مصحة جورج روزنبرج يحمل نفس المغزى: لا تنسى.

في حديقة المصحة كانت هناك عربة يد رمادية. إنها جديدة وتبدو غريبة عن المكان حيث كان المرضى ينفرون من أداء أي عمل، الحقيقة أنه

كانت هناك أحواض زهور جميلة تزين الحديقة. كان لانز، من ناحية أخرى، المريض الوحيد الذي كان لديه الرغبة في العمل، كان يسأل دوماً عن عربة يستخدمها في العمل ... وها هي العربة، متواجدة في مكانها بعد أسابيع من فقدانه الأمل في تنفيذ طلبه. تحدث تلك الأمور أحياناً: كهدية تظهر فجأة، غير متوقعة. كان جومبرز يعتقد بأن مفاجأة جيدة، من حينٍ لآخر، تساعد على تقليل الغضب عند مرضاه - أو بعضهم دون الآخر - على نحو طبيعي، تحت السيطرة. كان جومبرز يستغل أعياد ميلاد مرضاه كوسيلة تهدئة - فمثل تلك المناسبات تساعد على مرور كل عام بسلام، وأن تجعل الجميع يقظاً. وبينما الكل قد فقد تمييز تاريخ اليوم، فجأة - ودون سابق انذار، فإن ذلك اليوم يُسمى "يوم خاص"، ومن ثم شيء غير متوقع - كالعربة - يظهر في حديقة جورج روزنبرج. عيد ميلاد سعيد، لانز.

3

في ذلك الصباح، أخذ "جوديك" يركض في الحديقة صارخاً بعد أن رأى بقعة من الدم. قطب جومبرز وجهه وهو ينظر إليه من وراء نافذة مكتبه، ثم عاد من جديد إلى ميليا وقال لها: لا تقلقي ... إنه جوديك.

كان هناك قرار هام في حياة ميليا أُرغِمَت عليه. بالفعل، فقد حرموها من اتخاذها للقرار بنفسها، وكأنهم اختطفوها في سيارة قادوها لأيام في جميع أنحاء البلاد، ثم تركوها في منتصف الطريق تعطّل المرور. توقفت حياتها من دون ذلك القرار، وتوقفت حياة الآخرين كذلك.

تذكرت ميليا ذلك المكان الخفي في الحديقة، حيث اعتادت على مقابلة إرنست خلسة واستراق بعض القبلات. المكان عبارة عن ثلاث شجرات متقاربات كثيفات الورق، مكان مناسب تماماً لعاشقين مختبئين، وكأنهم بنوا المكان خصيصاً لهما. كان المرضى الأخرون يطلقون على ذلك المكان شجر العشاق ... لم يكن ميليا وإرنست أول عاشقين يستغلان تلك البقعة من مصحة جورج روزنبرج.

ولكن بالفعل كان هناك قرار حُرمت منه ميليا؛ وهذه حقيقة، حدث موثق، واقعة أقحمت فيها، أو على القمة، من حياتها؛ لم يعد هناك وقت لميليا كي تشتكي، أو تتفكر، أو حتى تدرس أي خيارات أخرى. وكأن ذلك القرار مسماراً حديدياً معلق في جدار غرفتها يسيء لمظهرها، ويحرمها النوم بالليل - ولا حوار يُجرى معه، ولكن المسمار لم يكن في جدار غرفتها حرفياً، بل كان في جسدها نفسه حيث ينتمي وحيث تم دقه في المكان المناسب (فلكل أمر وكل حدث مكان مناسب، وتلك الأماكن تعرف ما

يناسبها أفضل منّا). حيث أنهم سرقوا جزءاً منها، قطعة من جسدها، حرموها من شيءٍ ما في غرفة لم ترها من قبل في المبنى المجاور لجورج روزنبرج - ذهبت لهناك ومن ثم خرجت ببطانية ثقيلة دون رحّم. قال لها أحد الأطباء: يجب أن نتأكد من أنكِ لا تخبئين شيء آخر، لا الآن ولا لاحقاً.

كان ذلك إجراءً طبياً بسيطاً في عصر التكنولوجيا. لن تصبح ميليا قادرة بعد ذلك على إنجاب أطفال. فقد قضوا على تلك الإمكانية تماماً. لن يكون بإمكان رحمها أن يقول: "كفى!"، بنفسه. فقد قرروا نيابة عنها.

لم تكن ميليا تعلم ما سيفعلونه بها، حتى أنها لم تعرف لاحقاً السبب وراء الألم الشديد الذي شعرت به. لم تفهم سبب شعورها بالتعب، ولا سبب وجود تلك الضمادات على بطنها. ولكن بعد سنين طويلة من خروجها من المصحة أخبرها أحدهم بما فعلوه بها، وسألوها: هل سمحتِ لهم بفعل ذلك؟

ميليا، التي كانت حينها في صحة جيدة، قالت: لا!

4

كان ثيودور باسبيك الرجل الثري ذو السمعة الطيبة في دنيا الطب يدفع الرسوم مقدماً كي يضمن راحة زوجته السابقة لمدة خمس سنوات في مصحة جورج روزنبِرج الفاخرة للمرضى العقليين.

وبرغم ذلك كانت ميليا تشعر بعداء من الآخرين في المصحة، وهو الأمر الذي لم تفهمه. بدأ الأمر من القمة. مع دكتور جومبرز نفسه، ثم بدأ ينتقل إلى الموظفين بكافة درجاتهم، حتى صار الأمر خبيثاً عندما وصل العداء إلى عموم الممرضات اللاتي كن يلاحظن كيف كان مدير المصحة يعاملها، وبذلك شعرن أنه خولهن بمعاملتها بنفس المعاملة. وبالتالي شرعن في تطبيق نظامٍ حقير من الأساليب الوحشية مارسنها لمصلحة ميليا من دون شعور بتأنيب الضمير المتمثل في الخروج عن ذلك الانضباط الصارم الممارس من قبل العاملين في المصحة.

جومبرز قال في حواره مع ميليا بخصوص اللوحة: "أنت لا تملكين أدنى فكرة عن التكلفة التي تكبدناها للحصول على هذه اللوحة." لم تفهم ميليا معنى لذلك.

وأضاف: "اللوحة ليست قذرة، بل أنتِ القذرة."

رفعت ذقنها بكبرياء لتظهر الصليب المعلق حول رقبتها والذي صار ملاذاً لها، وكأنها عندما تلمسه تذهب إلى عالمٍ آخر. وكأنها تفتح باب غرفة آمنة وتغلقها عليها. عندما تشعر به بين أناملها كانت تشعر بأنها وحدها، حتى لو كانت محاطة برجالٍ مزعجين ونسوة يحاولون شدها في محاولة

لمنعها من "الذهاب"، ولكنها كانت "تذهب". "تختفي" من الغرفة. حتى لو كان كيانها المادي مازال يحتل حيزاً مكانياً. كان الآخرون يتركونها وحيدة في هذه الحالة، يتجاهلونها، وكأنها قطعة من الأثاث، شيء لا تتوقع منه التجاوب معك.

كان ويسليز، ذلك الرجل الذي كان يدفعه الإصرار على إخبار الناس بأنه بلع مسماراً، يتحدث ببطء شديد، مثله مثل كثيرين في المصحة. كان يبدو عليه مثل الآخرين أنه ابتكر لغة جديدة، مستخدماً نفس الكلمات والنظام النحوي للغتنا التي نتحدث بها، ولكنها لغة مسلولة، شلال من الجمل المحشوة، كلماتها لا تسمح لها فرصة الإعراب عن معناها، حتى المقطع الصوتي الأخير من كلماته لايكاد ينطق، أو يصبح واضحاً، حتى تنطلق الكلمة التالية وتدفع نفسها في الهواء، وبذلك تضيع الكلمة السابقة لها؛ كانت بداية كل كلمة منصهرة في نهاية الكلمة السابقة لها، وكأن الكلمتين لهما نفس الأصل الفيسيولوجي ... ردة إلى زمان ولادة اللغة المفهومة.

كان ويسليز بالفعل يتحدث ببطء شديد، وكان يشرب الشاي على الدوام، مثله مثل المرضى من النساء، محاولاً إذابة المسمار الذي يدعّي أنه بداخله.

قطف ويسليز اليوم تفاحة - وفور أن صارت في قبضة يده شعر وكأنه يملك سلطة جديدة: هي سلطة ذلك الكائن الحي الذي يمتلك يدين يستطيع بهما التقاط ثمرة أو إلقائها أو اللعب بها من دون تفكير. وفيما

يعني الثمرة، فقد قررت أن تنتظر لترى مصيرها: وفي حذر أحمق، انتظرت ويسليز ليأخذ قضمة واحدة من لحمها الأحمر ومضغها.

سأل ويسيلز ميليا: هل تريدين بعض التفاح؟

لم تجب.

كان المرضى يتجنبون إزعاج ميليا حينما تكون منهمكة في "قراءة الأرواح". في بعض الأحيان، كانت تترك "ذلك المكان" وهي تلعن خطأً أزرقاً رأته أو تحاول تحطيم أنف أحدهم. وفوق ذلك، ليس من المقبول أن تقطع سير حوارٍ خاص.

في هذا اليوم جلست ميليا مبتسمة إلى جوار ويسيلز الذي كان يبتسم بدوره، حتى وهو يعلم أنها لا تستطيع رؤيته. التفاحة أصبحت من نصيبه وحده، وهذا كان أكثر من كافٍ بالنسبة له: كان سعيداً.

5

من ضمن العلاجات التي كانت تتبع في المصحة هو ملامسة المريض للمياه، ذلك لأن المياه بمثابة وسيط مهدئ في مواجهة أي سلوك عدواني. كان الرجال يجلسون ويدخنون في حديقة جورج روزنبرج، بينما كانت النساء تجتمعن حول حوضٍ طويل من المياه، ينقعن أيديهن، ويتحدثن عن الأوضاع الجنسية التي تعجبهن، ويتسامرن عن أعضاء زملائهن. كانت ثينكا امرأة داكنة البشرة معروف عنها استخدام الجمل الطويلة المعقدة بصورة مستفزة وكأن لا نهاية لتلك الجمل. بدأت ثينكا في السخرية من ميليا - بإيجاز - ومن حقيقة أنهم أخذوا ابنها منها.

صرخت: إرنست هو والد الطفل! إرنست هو والد الطفل!

تحب ثينكا إخافة الناس ليلاً؛ حيث تعتقد أنها تختفي في الظلام، ثم تتسلل إليك من دون علمك لإخافتك. كان تضحك بصوتٍ عالٍ طوال الوقت. كانت تحكي عن مدة قضتها في مستشفى عسكري وصفت ملاءات أسرتها بأنها سميكة كجدران المستشفى، فسرت ذلك بأن الملاءات السميكة تقي من شر الانفجارات.

ثينكا امرأة متعلمة، وسرعان ما صارت من أكثر المرضى تأثيراً. تتمتع بجسمٍ قوي وذراعين طويلين ممتلئين كما أنها تحب ملامسة الناس؛ يديها تأخذ وقتها على جسدك. كانت تتحسس بيديها الناس أو تميل ناحيتهم. أما الآن، فثينكا تتشبث بميليا من الخلف وكأنها حقيبة ظهر سوداء ضخمة. تقبل رأسها وشعرها، ولكنها في بعض الأحيان تستهزئ من قلة حيلة ميليا. تقول لها: "أنت لم تخلقي لتكوني أماً". هكذا، بدون إنذار، وبدون أي نظرةٍ

قاسية. لم تكن ثينكا مدفوعة بالرغبة في الانتقام العمدي، بل مدفوعة برغبة قوية أكيدة في استعراض القوة أمام امرأة أخرى، وكأنها تضع ميليا في مكانها.

كانت ثينكا تقول ما تقول، ثم تضيف كلمات أخرى إلى كلامها، وبهذا تطيل جملها، "لقد أخذوا منكِ طفلك لأنكِ لم تخلقي لتكوني أماً!"

حاولت ميليا كسر الزجاج، ولكنها جرحت نفسها. قال لها ويتولد، نزيل المصحة منذ عشرة أعوام: "إن لم تشعري بروحك، اكسري الزجاج بروحك."

بصقت ميليا عليه، ولكن لم ينجح الأمر تماماً، وظل لعابها تحت لسانها. ضحك ويتولد من منظر سيل لعابها، ثم تكفلت هي بمسح فمها بكمّها.

عدي أصابعك ... كم إصبعاً لديكِ؟

أجابت ميليا: خمسة.

قال ويتولد: أرأيتِ؟ مازلت تملكين يدكِ بالكامل.

أصرت ميليا: لا! يدي ضائعة.

حاولت ميليا ضرب الزجاج مجدداً، أمسكها رجلان.

لم تستطع ميليا تحريك ذراعيها، فالرجلان لم يسمحا لها بذلك. اكتفت بقبض وبسط يدها اليمنى عشرات المرات.

الفصل الثالث والعشرون

إرنست وميليا وهينرك وهانا وثيودور

1

تمكن إرنست وميليا من الهروب من مصحة جورج روزنبرج إحدى المرات. انطلقا في الشوارع وكأنهما دخلوا إلى عالمٍ جديد. الحياة كانت غير مفهومة بالنسبة لهما. قابلا رجالاً ونساءً حسباهم رسلاً، فقالا لهم: ألديكم رسالة لنا؟ أرادا السؤال. الناس في ذلك العالم بملابس غريبة تماثل غرابة طريقة سير إرنست، ولكن لم تثر إعاقته استغرابهم: الجميع في طريقهم للعمل، وزحام الصباح يذيب أي غرابة تماماً، حتى لو مروا بجوار تنين لن يلمحوه، لقالوا له: صباح الخير! من فرط شرودهم.

فرح إرنست وميليا بعدم تعرّف أحد عليهما في ظل ذلك الزحام، وتأكدا تماماً أن هروبهم من المصحة لم يعكّر صفو شيء. لم يكونا مجنونين أو مريضين للدرجة، ومن ثم فإن المدينة لم تعرهما أدنى اهتمام.

ابتسما لبعضهما البعض وهما يجلسان في إحدى المقاهي. كان حولهما العالم الخارجي، ولم يلحظهما أحد. ملأتهما السعادة. مالت ميليا فوق الطاولة وطبعت قبلة على ثغر إرنست، وسعيدةً حدّثت نفسها: يا لنا من عاشقين يتبادلان قبلة سريعة داخل مقهى.

نحن عاشقان! قال إرنست للنادل، الذي ابتسم.

التقط إرنست قطعة من الكعك ليضعها في فمه، بينما كانت ميليا تهمس بكلماتٍ ما في أذنيه. ترتسم على شفتيهما البسمات. ملأتهما السعادة. أدخل باب المقهى المفتوح نسمة هواء قارصة، لكنها ما زادت العاشقين إلا استمتاعاً. كم مرّ من الوقت قبل أن تقلقهم برودة الجو بالخارج؟

شعرا وكأنهما عادا للطبيعة من جديد، وكأنهما في الريف وسط سهلٍ منعزل لا داخل مقهى صاخب يملؤ هواءه دخان السجائر ويقع وسط المدينة وتحاصره ضوضاء السيارت.

عطست ميليا فعرض عليها إرنست استبدال أماكنهما حتى يصير هو الأقرب للباب، ولكنها رفضت وقالت: لا تشغل بالك. ثم عطست مجدداً.

قالت ميليا بعدما تناولت قطعتها من الكعك:

الولد يبلغ من العمر عامين اليوم.

فهم إرنست أن ميليا اختارت هذا اليوم بالذات لهروبهما.

سألها إرنست: 25 مايو؟

أجابت ميليا: 25 مايو.

2

مرت عشرة أعوام كاملة - أو بالأصح عشرة أعوام وأربعة أيام على ذلك اللقاء. يوم 29 مايو الساعة الرابعة والنصف صباحاً. رجلٌ يُدعى هينرك كان يسير بعيداً في شارع جانبي مظلم، خلفه جثة صبي: كاس باسبيك.

رغب هينرك في العثور على هانا على وجه السرعة. ذلك الضيق الذي دفعه للخروج من شقته لم يمحه لقاؤه القصير بكاس. شعر أن تلك الليلة حاسمة، وأساسية لفهمه المحدود للعالم. كان يحس بأنه يعيد البحث عن حياته: لم يكن هينرك يدرك قوته، لم يكن يعلم ما يقدر على فعله، ولكن تلك الليلة لم يكن أمامه إلى العنف ليردَّ به على أي شيء، بدون تردد، يمضي قدماً. كان قد خلّف وراءه جثةً في سهرته، ولكنه لم يكن يشعر بأنه رجل يسير في الشارع بعد ارتكابه لجريمة قتل، بل شعر بأنه رجل يسير في الشارع بعد لقاءه بصديق.

لا زال بتنفس بصعوبة، ورغم شجاره مع الصبي، إلا أنه شعر بتعبٍ خفيف لكن محسوس. لم يكن قادراً على الإيمان بقوته من قبل، فكان يجد الراحة في كل شيء غريب يفعله.

كان هينرك متوجهاً صوب شارع كليرك بورك وسط المدينة حيث تصطاد هانا زبائنها، أو يصطادونها هم. حياة هينرك كانت مناسبة لحياة هانا، مثل قارب في ميناء. كانت مرساها توفر له الحد الأدني من الاستقرار، نقطة اتصال، شيء يستند عليه ويحافظ عليه من السقوط. كانت هانا بالنسبة له همزة الوصل مع العالم، والمدينة، همزة وصل مع كل شيءٍ حي.

ليس هناك تقليل من قيمة وجود شخص تحدثه من حينٍ لآخر. كان هينرك يعي جيداً أن وجود هانا في حياته جعل جزء كبير من عدوانيته وعنفه أمر اختياري ... تلك الطاقة العنيفة كانت دائماً بداخله جاهزة للانفجار.

أما في تلك الليلة كان من الواضح هينرك أن تلك الطاقة على وشك الانفجار. تلك الشهوة العنيفة على أعتاب الظهور. وكأنه يقول للعالم: - أنتم لم تسمعوا مني شيئاً حتى الآن. وكأنه شخص تلقى من جمهوره تصفيقاً حاراً على مجرد أغنيته الأولى. ثم فكّر كمجرم يشعر بالخزي: في النهاية هو مجرد طفل ... أنا قادر على فعل أكثر من ذلك بكثير.

أحس بوزن المسدس المدسوس في حزام بنطاله، ذلك المسدس الذي لم يكن بحاجة لاستعماله مع الصبي (الذي لن يعرف اسمه مطلقاً). وصل هينرك إلى شارع "كليرك بورك" وشاهد هانا تقف إلى جوار رجلٍ ما. كان ثيودور باسبيك.

توجه هينرك صوبهما مبتسماً بود.

الفصل الرابع والعشرون

إرنست وميليا وكاس وثيودور

1

في يوم 25 مايو بالذات، يوم أن أتمّ كاس باسبيك عامه الثاني، تم تسجيله رسمياً باسم دكتور باسبيك ومدام دكتور باسبيك بدلاً من إرنست سبنجلر وميليا سبنجلر، وها هو الآن يعيش في كنف والده "دكتور باسبيك". لم يكن بمقدور الاثنين الهاربين من مصحة جورج روزنبرج أن يشاهدا الفتى صاحب عيد الميلاد، على الرغم من محاولاتهما المتعددة.

كان هناك بواب يحرس بيت ثيودور باسبيك، وليس بإمكان أحد أن يدخل أو خرج من دون إذنه. حتى لو أراد والدا كاس إلقاء نظرة سريعة عليه من بعيد، سيكون ذلك من دون جدوى. لم تكن هناك أي علامة على وجوده أو وجود أي شخص آخر، كانت هناك بعض الدلائل المخفية أبرزها وجود لعبة صغيرة مهملة وملقاة في الفناء الخلفي للمنزل وجدتها ميليا عندما تسلقت الجدار.

لم يكن إرنست من النوعية سريعة الغضب، ولم يكن عنيفاً أو عدوانياً كذلك. ولكن في هذه المناسبة لم يكن قادراً على كبح جماح نفسه. توجه صوب البواب الواقف أمام منزل ثيودور، والذي وضع عينيه على كلٍ

من إرنست وميليا، وعندما سألاه عن دكتور باسبيك، تغاضى عن سؤالهما، فقام إرنست بدفعه بطريقة خرقاء.

فشل الهجوم المزعوم لإرنست على الرجل، ليس فقط لعدم التناسق الحركي، ولكن أيضاً بسبب ما قد تسميه "حالة العجز" التي تعرض لها في جورج روزنبرج. لم يكن العلاج البدني الذي يخضع له المرضى مركزاً أساساً على بناء قوة الجسم، لأن القوة بطبيعتها مخربة. بل ركز العلاج الأساس على ثبات مستوى الضغط والتوازن. وبذلك تم ترويض عضلاته، أصبحت حالمة، متأملة، صبورة. وبسبب ذلك، وعلى عكس إرادته، إذا حاول إرنست الإمساك بشيءٍ ما، لم يكن من السهل عليه التخلص منه. وإذا أراد دفع شيءٍ ما، لم يكن يضغط على الشيء ثم يتركه كي يندفع، بل كان يضغط فقط، ثم يرتاح قليلاً، ثم يعاود الضغط من جديد.

لم يحتج البواب إلا إلى رد فعل واحد على إرنست ونكزاته وضرباته المضطربة، فدفع إرنست الهارب بصورة لا تحتملها قدماه. ساعدته ميليا على الوقوف على قدميه، ولكن عندما وقف أصر على التوجه صوب الباب من جديد، ولكن هذه المرة عاجله البواب بلكمة. سقط إرنست على الأرض ووجه غارق في الدماء.

أخذ يبكي.

2

كان كاس في الرابعة من العمر عندما رأته أمه أول مرة. في تلك الأثناء كان ثيودور باسبيك حاضراً اللقاء.

قال ثيودور: "قف يا كاس، هذه أمك."

لم يقف الطفل على قدميه واكتفى بالدوران على الأرض حول والده وهو يضحك.

كانت ميليا قد أظهرت بعض التحسن في حالتها. وهذا يعني أن تلك الطاقة الغريبة التي كانت تسكنها وقتاً ما، والتي سببت لها مشكلات كثيرة، لم يعد لها وجود الآن، أو أنها بالأحرى توجهت لناحية أخرى واختفت داخل جسمها في مكانٍ لا تستطيع الوصول إليه. ولكن الآن صارت الحركة هي الشيء الذي يخيفها. في بعض الأحيان عندما يغلق أحدهم الباب تشعر بالخوف الشديد لدرجة الموت. كان من المضحك أن يعتقد أحدهم أن ميليا تمتلك أدنى قدرة على التأثير على العالم من حولها كإنسان. ولكن العالم كان أكثر مرونة منها، كان أقوى وأكثر قدرة على المناورة. أما ميليا، فأقل شيء يستطيع عرقلتها. في حين أن العالم ... لا سبيل أمامها لمقاومته. بدا الأمر وكأن كل شيء متعلق بها وبحياتها كبر حجمه بشده. فأصغر زجاجة تبدو شيء عملاق، وكيف تأمل ميليا في الإمساك بها؟ ولكن لا يعني ذلك أن ميليا نفسها قد تقلص حجمها. لا، بل صار جسمها - الشيء الوحيد الذي لم تستطع تجاهله - ضخماً، ثقيلاً، بطيئاً ... فلا عجب من أنها تتحرك بصعوبة.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فقد عثرت ميليا من قبل على بعض المجلات الإباحية ملفوفة في ورقة بنية بغرفة إرنست. الجميع كانوا على علم أن الرجال في المصحة يتداولونها بينهم، ولكن بمنأى عن النساء بالطبع، باستثناء امرأة تدعى فانا، النزيلة التي اعتادت الإمساك بأعضاء المرضى، علاوةً على أنها صاحبة اللسان الأكثر بذاءة في المصحة.

وبرغم ذلك، تفاجأت ميليا من كون حبيبها إرنست مثله مثل بقية الرجال، فقد أخفى مجلتين إباحيتين ملفوفتين في غرفته، وكأنهما مجوهرات غالية. جلست عدة دقائق تتأمل الصور، تلك الأحجام المختلفة من القضبان الذكرية وهي تخترق فرج ومؤخرات وأفواه النساء اللاتي نظرن للكاميرات وهي تصورهن من دون خجل. شعرت ميليا أن ما بيديها هو عالم آخر بالنسبة لها، نساء أخريات.

حتى الممرضات أنفسهن كن يعلمن أن تلك المجلات كان تتداول بين المرضى في جورج روزنبرج. وحيث أن لوائح الإدارة لم تنص صراحة مثل هذا الأمر، مع هذا كان الموظفين يتغاضون عن الموضوع - المصادرة فقط إذا كان لأحد المرضى الجرأة لإظهار مجلة إباحية في العلن.

"انهض يا كاس، هذه أمك."

ولكن على الرغم من إصرار ثيودور، لم ينظر كاس لميليا إلا نادراً خلال الزيارة الأولى: هذه السيدة لا تعني له شيئاً، السيدة ذات الطلة المشرقة. بالنسبة له. ظل رأسها يتحرك للأمام وللخلف، محافظة على إيقاع ثابت. لو كان كاس يملك القدرة أكثر على الحديث لقال: هذا ما يبدو عليه الجهل، هذه امرأة لا تفهم، ولا تريد المحاولة. لم تكن ميليا قد تركت

جورج روزنبرج إلا قبل أسبوع من هذا اللقاء، وكانت هذه هي المحاولة الثانية لها للحياة خارج أسوار المصحة. كانت عيناها باهتتين واهنتين، حتى نظراتها كانت مرتخية، وكأنك لو رأيتها لأخذت بيدها وأرشدتها لترى الطريق.

قد تكون هذه الملاحظة قاتمة بعض الشيء، ولكن في تلك اللحظة كان هناك فرق بين نظرة دكتور ثيودور باسبيك للأشياء - تلك النظرة الخاطفة سريعة الاختفاء كشريط تقييم القدرة العقلية - ونظرة تلك المرأة التي عرّفها على أنها والدة كاس - تلك النظرة البطيئة المتجمدة نوعاً ما. تعلم ثيودور نفسه من والده توماس باسبيك كيف يتعرف على مقدار ذكاء الآخرين من خلال سرعة حركة أعينهم. قال له توماس في إحدى المرات: إذا كنّا بصدد حساب معدل حركة أعيننا على الأشياء التي حولنا، سنتمكن من معرفة متوسط سرعة أعيننا في العام الكامل، وحينها سنصل إلى أرقام تقريبية دقيقة لمقدار ذكاء الفرد، وحينها أيضاً سنعرف قيمة الشخص بدقة. بإمكانك فعلاً تقييم أحدهم في ثوانٍ معدودات إن اهتممت بالفكرة، حتى لو كان ذلك الشخص لا يتكلم. لا يهم كثيراً ما يقوله الناس، فربما تكون لديهم ذاكرة قوية. ولكن لا، إذا أردت أن تختر شريكاً، كل ما عليك هو أن تسد أذنيك وتركّز على عينيه، تركّز على حركاتهما، تركز على الطريقة التي تدور بهما عيناه حول الأشياء المحيطة به، وكيف تضخم عيناه تلك الأشياء، وكيف تشد تلك الأشياء عينيه كذلك، تركّز على حركة عينيه حول الأشياء المحيطة به أو تباطؤها حينما ينظر الشخص لشيءٍ ما. أعيننا وعقولنا تسير في نفس الطريق حول العالم.

نادت ميليا على ابنها: كاس، لكنه لم يرد،

فقال ثيودور بحسم: كاس باسبيك ... هذه أمك.

عندها قال الصبي ببساطة: لا!

الفصل الخامس والعشرون

هانا وهينرك وثيودور وميليا وجوثجينز

1

ارتاح بال هانا حينما رأت هينرك، على الرغم من انزعاجها من ذلك الموقف الغريب حيث رأت زبونها ثيودور في مواجهة "قوّادها" هينرك، إن كان التسمية مناسبة له.

تعلم ثيودور من والده أن انحرافات المشاهير لا يجب أن تبقى طي الكتمان، وإلا ستُستخدم فيما بعد لابتزازه. ومن ثم قضى ثيودور سنوات طويلة يتحدث فيها بحرية عن علاقاته النسائية وكأنه يتكلم عن شيء عادي. كان يسير عبر الشوارع الخلفية للمدينة - حيث المواخير وبيوت الدعارة - من دون أدنى خجل، لدرجة أن كان يستخدم اسمه الحقيقي في التقاط العاهرات. وبذلك، ومن دون تردد مدّ يده إلى هينرك وعرفّه على اسمه الحقيقي وكأنه يقوم بتصرف عادي.

"ثيودور باسبيك".

كان هناك شيء غير مريح في اسمه، فالاسم لم يكن غريباً عليه. صافح يد الرجل الذي كان على وشك أن يعطيه مالاً، بصورة غير مباشرة.

أما بالنسبة لهانا، فذلك الحوار قد تجاوز الحد، فوقفت بين الرجلين وقالت هينرك مبتسمةً: سنتحدث لاحقاً ... لدي موعد مع هذا الرجل. ودّع

ثيودور الرجل ذا الأكياس الطبيعية أسفل عينيه، ثم تبع هانا التي ترجرجت مؤخرتها وهي تسير، مما أشعل في نفسه رغبة جنسية شديدة لم يعتد عليها.

كان هينيرك قد ذهب في الاتجاه المعاكس بضع خطوات قبل أن يدرك الأمر، تذكر ذلك الصبي الأعرج، أكمل سيره، وهو يهمهم: باسبيييك.

في تلك الأثناء، يبدو أنه قد فقد السيطرة على قدميه اللتان أخذتاه باتجاه الكنيسة.

"مهما أردت، لن يستطيع جسمك نسيان فترة إقامته في جورج روزنبرج".

كانت ميليا مستلقاة على فراشها تستريح قليلاً من ذلك الألم الذي شعرت به في معدتها للمرة الأولى. كانت تشرح للطبيب أنه أثناء فترة احتجازها بالمصحة خضعت لجراحة حرمتها من الإنجاب مجدداً.

سألها الطبيب: هل حدث ذلك من دون موافقتك؟

قالت ميليا: دون موافقتي.

كان طبيب أمراض النساء والتوليد رجلاً كبير السن اسمه دكتور جونجينز. جلس ثم قام مجدداً ببطء. بدا صوته جامداً متوتراً.

ليس من حق أي طبيب أن يجري هكذا جراحة من دون موافقة صاحبة الشأن.

قالت ميليا: لم يطلب مني أحد موافقتي. قد أكون وقعت على بعض الأوراق، ولكن حتى وإن فعلت فمن الأكيد أني لم أكن في حالة تؤهلني لذلك. أنا لا أتذكر.

كان دكتور جونجينز قد أجرى تشخيصه الذي نصّ على أن الجراحة التي خضعت لها ميليا في المصحة لمنع حدوث أي حمل في المستقبل لم تُجرى على وجهٍ جيد. في الواقع تلك العملية حققت هدفها وجعلت ميليا عقيمة، ولكن هناك ضرر وقع أثناء جراء إجرائها. يجب إجراء جراحة

أخرى، فهناك خطبٌ ما غير سوي. قال الطبيب: أنتِ لا تمرين بمرحلة شفاء جيدة، أتمنى أن تساعدك الجراحة المقبلة على ذلك.

عادت إليهم ميليا من جديد بعدها بأسبوع لتخضع لأول جراحة تُجرى عليها طواعيةً. أما في الأعوام القليلة المقبلة، ستخضع ميليا لثلاث عمليات جراحية أخرى. في نهاية الأمر أدرك الطبيب أن حالة ميليا تتدهور، وقال لها أنه لا يملك فعل شيء آخر. ستحيا لعامين فقط، أما أكثر من ذلك فستكون معجزة. قال لها: أنتِ تحتاجين لراحةٍ روحانية الآن لا لعلاجٍ طبي.

تذكرت ميليا نظريات زوجها السابق. تعرفت عليها عندما ذكرها دكتور جوثجينز. تذكرت ذلك الكلام عن الروح والبحث عن الرب؛ ذلك النوع الثالث من الصحة الذي تبقى لها بعد ضياع صحتها العقلية وذهاب صحتها البدنية.

وجدت نفسها في نفس النهار تكرر جملة غريبة، مبتدعة للمرة الأولى، وكأنها تستذكر شيئاً ما تصور به مأساتها. كلمات قد تمثل في حالتها إعلان حرب، أو نبوءة يائسة:

إن نسيتك يا جورج روزنبِرج، تنسى يميني.

الفصل السادس والعشرون

إرنست

1

بينما هو يرتدي سترة ضيقة أو ربما كان مقاسها صغيراً عليه. اعتاد إرنست سبنجلر سماع المارة في الشارع وهم يتحدثون محاولاً تفسير كلماتهم من دون أن يركز على حوارٍ واحد بشكل خاص، فكان يمزج بين حوارٍ يجريه رجل يرتدي رابطة عنق مع أحد زملائه، مع حوارٍ يجريه مراهق مع اثنين من أصدقائه. أراد إرنست أن يبعد نفسه عن الاهتمام الزائد بتفاصيل حيوات الناس من حوله. أراد أن يربط كافة الحوارات التي يجريها سكان المدينة معاً، كي يبدو صوتهم صوت واحد، ككلمات لا تتعدى الأمر البسيط الذي ينطلق به عسكري وقت الحرب.

شاهد مجموعة من الرجال يلعبون لعبةً ما من بعيد. عندما اقترب أكثر ظنّ إرنست أنهم مجموعة من الرجال داكني البشرة يخرجون أواني فخارية من أحد المباني وينقلونها إلى شاحنة خفيفة. عندما اقترب أكثر، شاهد رجلاً يرتدي زياً أسود اللون يقف إلى جوار المبنى، ومن الواضح أنه كان بواباً يؤدي عمله. ثم صار الأمر واضحاً بالنسبة لإرنست، فقد مات أحدهم، رجلان وصلا في سيارة نقل الموتى ومعهم نعش فارغ لتشييع الرجل أو المرأة الذي كان يقطن في إحدى شقق ذلك المبنى. كان على رجال نقل الموتى أن يتأكدوا من وصولهم للعنوان الصحيح. فتح البواب باب المبنى

بذوق واحترام، على مصراعيه، للسماح للنعش وحامليه بالحركة بحرية، حتى أن رجلاً كبير السن، أحد سكان العقار، فور ما شاهدهم أزال سلة مهملات كبيرة من الطريق للسماح لهم بالعبور دون أن يرتطم مرفق أحدهم بها دخولاً وخروجاً.

كان إرنست قد خرج من مصحة جورج روزنبِرج منذ عدة أعوام - وها هو اليوم يجوب إحدى المناطق الراقية، بينما كان ابنه الذي لا يعرف أحد أنه من صلبه يحتفل بعيد ميلاده. كان ذلك اليوم 25 مايو، يومٌ لن ينساه إرنست ... يوم أن هرب للمرة الأولى بصحبة ميليا.

في إحدى المرات، وأثناء تواجده في شارعٍ مزدحم، قابل إرنست الزملاء من جورج روزنبرج. كانت مصادفة غير محبذة، وكأن القدر ألقى بمضيبة في طريقه. لم يتحسن إرنست مطلقاً، فظل رجلاً عادياً تماماً من دون أي مزايا تُذكر. ليس بإمكانك أن تشك في أي خطبٍ بشخصية إرنست عندما يلتزم الصمت - على عكس الآخرين - ولكن لم يكن ذلك كافياً. فهو يعلم جيداً أن شخصيته لم تحمل أي جانبٍ إيجابي على الإطلاق، تعوضه عن عيوبه الكثيرة، كعدم امتلاكه لأي موهبة فنية أو استثنائية بعد خروجه من المستشفى لتساعده في العودة بنجاح إلى المجتمع البشري من جديد. ظلت حياته كما هي، ونظراً لأنه شخص احتجز في مصحة جورج روزنبِرج لفترة طويلة، لم يكن ذلك كافياً بالنسبة له. كل النزلاء السابقين أرادوا أكثر من حريتهم، وسواء كان ذلك بوعيٍ منهم أم لا، فإنهم طالبوا بتغيير إيجابي في حياتهم أو إبداعاً مغايراً، حتى لو كانت امرأة على سبيل المثال أو طفل. طالبوا بتغيير يجعلهم يدركون أن انتظارهم، خيبة أملهم، صبرهم، عدم حدوث أي تغيير أمر يمكن احتماله.

ولكن نظراً لعدم تغير أو ظهور أي شيء في حياة إرنست سبنجلر تعوضه عن عدم تميزه، صار مضطرباً - بشكل اتسم بالشراسة - في وجود الناس الذين يعرفون ماضيه. كان مجرد رؤيته لهؤلاء الناس أشبه بحك أنفه في دليل فشله الدائم ... يكاد يراهم إرنست يظنون: لقد عانيت كثيراً، ولكن لأجل ماذا؟ أنت حتى لا تعيش حياة طبيعية.

وبالفعل كانت الحياة بالنسبة لإرنست سبنجلر مقبولة نوعاً ما عندما اقتصرت معارفه على الناس الذي قابلهم بعد خروجه، الناس في حياته الجديدة، الناس الذين لا يعرفون ماضيه، الناس الذين لا يعرفون أين كان، الناس الذين لا يعرفون كم عانى من قبل. كان في حلٍ من اختلاق أعذارٍ وجودية، بل كان كافياً بالنسبة له أن يكون صحيح الجسم بالكامل - ولو نسبياً - وأن يعيش.

كان إرنست يسير لساعات يجوب أركان المدينة، يختلق القصص، ويتخيل العلاقات والصلات والصداقات بين الغرباء الذين يراهم في الشارع. كان يحاول تعلم الانخراط وسط الناس الطبيعيين من جديد. لم يرد أناس طبيعين حوله فقط، بل طمع في أن يعيش حياة طبيعية، أيام طبيعية. أيام خاوية تنتظر أن يملأها أحد؛ على عكس حياته القديمة في المصحة، حيث تدرب هناك لسنوات على أن يجلس ويتبع التعليمات ، ويسير وفق قواعد قررها أناس غيره، وأن يحيا وفق جداول يضعها أناس غيره. كانت الأيام في جورج روزنبرج وكأنها مرسومة ومخططة. ليس المقصود أنها مخططة هندسياً، إنما جينياً؛ وكأن كل المنغصات والمبالغات لا مكان لها في المصحة، ولا مكان هناك إلا لروتين بسيط واضح لا يتغير ...

من المفهوم، أن ذلك لم يكن الأثر الوحيد الذي طبعته مصحة جورج روزنبِرجْ على شخصية إرنستْ. فحتى السنوات التي قضاها في حريته المزعومة، عندما كان مرضه خاملاً، علم أنه قد خرج من المصحة غير مكتمل. كان عقله منطقة مأمونة الآن - بالنسبة له وللآخرين كذلك - إلا أنه شعر بصعوبة بالغة في التركيز. الأرض هناك موحلة تماماً، بفضل السنوات الماضية؛ كل ما بناه في حياته انهار بسرعة. تلك السدود والأسوار التي بناها حول حياته كانت من دون قيمة. كانت أفكاره متدفقة، تجري سوياً، لتشكل فيض من مادة غير متمايزة، تشل الحركة: وبسبب ذلك لم يكن قادراً على تمييز الفكرة عن الأخرى، لم يكن قادراً على اتخاذ قرارٍ واحد.

حتى عندما يقطع لنفسه قطعة من الكيك كان يقفز إلى عقله تفكير سخيف، لكن مرضي في نفس الوقت، يجعله يقول لنفسه: أرأيت! لقد نجحت في فصل شيء عن شيء آخر.

2

لم يكن إرنست يجرؤ على مجرد الحلم بلقاء مع ميليا. فأي لقاء بينهما خارج المصحة سيكون له أثر كارثي. علاقتهما انتهت بصورة طبيعية بعدما أن غادر أحدهم المستشفى؛ بعد مرور السنين عدة أدركا أن العالم خارج جورج روزنبرج والعالم بداخله أشبه بلغتين مختلفتين - بدون أي رابط بينهما. لا شيء في المصحة يحمل نفس المعنى في الشارع؛ لا أمل هناك للتواصل. فمع خروج الاثنين من المصحة، نسي كل منهما اللغة القديمة، وكأن كان كل منهما في بلدٍ مختلف؛ وكأنهما أناس مختلفين، يستخدمان تعبيرات مختلفة، يتبعان قواعد جديدة: وكأن كلٍ منهما لم يرى الآخر من قبل، ويعيش حياة جديدة تماماً. وكأن أحدهم قد خبأهما لفترةٍ من الزمن، وأغلق عليهم داخل زقاق مسدود، ومنعهم من الخروج، وعزلهم تماماً عن العامة ... ذلك الزقاق كان جورج روزنبرج.

كان إرنست يقول لنفسه: "المدير، جومبرز، كان يخبئنا بعيداً عن الناس، وكأنه يغار علينا: لم يكن يريد أن يشاركه غريب فينا. كأننا مرضى: لا يريد أن تصيب العدوى التي يحملونها غيرهم ... لا يريد أن تهلك المدينة بسبب طاعوننا.

ولكن لا، لم يكن هناك طاعون، كانوا مجرد مجانين.

تذكّر إرنست: هذا صحيح. لم يكن لدي مرض معدي. كل ما في الأمر أن عقلي لم يكن يعمل بالصورة المطلوبة.

ومع كل أسبوع يمر على خروجه من جورج روزنبرج، صار إرنست أكثر امتعاضاً تجاه المعاملة التي كان يتلقاها هناك. ما كان يبدو أنه حل وحيد -

الأسلوب، النظام (حتي أنه أشاد بهم بينما كان مريضاً)- صارت الآن لوائح وقوانين غير ملائمة وقاسية، حيث أن إرنست أصبح حراً طليقاً في الشارع بين الناس. وعلى الرغم من الاحترام الكبير الذي كنّه نزلاء المصحة ومنهم إرنست لمديرها دكتور جومبرز - مع الاحتفاظ بمسافة عاطفية آمنة - إلا أن هذا الاحترام قد تحول تدريجياً إلى إحساسٍ مزعج بداخله - وكأنه كابوس يزور طفل في منامه، يطارده ويتتبعه. لا شيء يرعب طفلاً أكثر من رجل يطارده، في ضوء النهار. رجلٌ كهذا لا ينافس في رعبه وحوش الليل الخرافية التي قد تزورك في منامك. الأمر هو، أنك عندما تسمع قصة خيالية عن شخص يتم مطاردته، فإنك لن تقاوم شعور أن المطاردة صارت خلفك أنت، وأن هناك رجل أيضاً يسعى خلفك أنت، أنت وحدك. وكأن ذلك المطارد قد وضع عليك علامة خفية ولن يستسلم أبداً. وإن كان هناك أمر أكثر إرعاباً من العلم بأن ذلك المطارد قد يلحق بك في أي وقت، فسيكون ذلك الأمر هو أنه لن يستطيع اللحاق بك، وذلك يعني أنه سيظل في إثرك إلى الأبد. (كان إرنست يتذكر جيداً تفاصيل قصة خيالية سمعها من قبل عن صبي يطارده أحدهم، وبدلاً من الركض والهروب توقف والتف وواجه مطارده قائلاً له: ها أنا ذا! لن تضطر لمطاردتي بعد ذلك، خذني الآن.)

وبينما لم يكن إرنست على علم بمدى متابعة دكتور جومبرز له في المصحة، وخصوصاً بعد مولد ابن ميليا -المتابعة التي لم تكسر حرفاً واحداً في لوائح جورج روزنبرج، كان ذلك نوع من الاضطهاد الحقيقي، المخلص، المطلق، الخبيث برغم ذلك، مما جعله موسوم بعلامة خفية تجعل منه فريسة إلى الأبد. وبينما لم يكن يدري المراقبة التي يشتد خناقها

على ميليا في الأعوام التي تلت تلك الأحداث: ابنها والطلاق وخلافه؛ إلا أنه كان راضياً عن كل تلك العداوات الخفية المُحاكة ضده وضد ميليا، وكأن تلك الممارسات امتداداً طبيعياً لأسلوب العلاج المتبع في مصحة جورج روزنبِرج:. حتى أن إرنست نفسه كان يصف تلك الممارسات بـ"الرحيمة"، (إنهم يعتنون بي!) - لكن الآن وبعد مرور سنوات على خروجه من المصحة وابتعاده عن هؤلاء الناس - ومن ضمنهم ميليا - الذين تداخلت حياتهم بحياته، بدأ يرى "دكتور جومبرز" والموظفين الآخرين بصورة مختلفة. بدأ يفهم أنهم لم يساعدوه (فقد خرج من المصحة من دون شيء)، وأنهم لم يستعيدوا شيئاً فقده (شيء كان يملكه قبل أن يدخل المصحة)، وأنهم كانوا يحصدون المال لا أكثر ولا أقل... وأن ما كانوا يحصلون على مقابل لفعله كان أكثر شراً ...

أجل، صار الأمر بالفعل أكثر وضوحاً داخل عقله، وصارت الأحداث أكثر تركيزاً. لقد عوقب على علاقته بميليا. ولكن الرجل الذي أنزل به هذا العذاب، الرجل الذي جعل حياته ككابوس متمثل في صورته الحقيقية لسنواتٍ عدة، ذلك الرجل كان مدير مصحة جورج روزنبِرج ... دكتور جومبرز، ابن المومس.

3

اليوم، 28 مايو، ثلاثة أيام بعد أن حدق في التقويم قال: ابني أتم عامه الثاني عشر ويحمل اسماً غير اسمي، لم يكن إرنست سبنجلر قادراً على كظم غيظه المتزايد من الحياة "الطبيعية" التي يعيشها، وتلك الحرية - المنقوصة - لم تكن تعويض كافي عن *الغياب* الذي حل بداخله منذ زمن بعيد، لا تعوضه عن الإساءات التي تحملها، ومن هنا قرر أن يتصرف مثل ذلك الطفل في القصة الخيالية التي يتذكرها. قرر أن الطريقة المثلى لدحر الخوف هي أن يتوقف عن الهروب ويلتف لمواجهة مطارده. حينها فقط قرر إرنست العثور على ابنه، والتحدث إليه، وإيضاح كل شيء له ... كاس.

لذا، في ذلك الصباح، وبعد أن تناول إفطاره على مهل في بغرفته الصغيرة بالطابق العلوي التي عاش فيها لسنواتٍ طويلة بفضل شفقة أسرته عليه، نزل إرنست على السلالم، وتوجه إلى الشارع بخطواتٍ متمهلة صوب مصحة جورج روزنبِرج. غامرته الرغبة في الحديث مع الرجل الذي لم يزل يطارده كل ليلة في أحلامه ... إنه دكتور جومبرز رولريتش.

الفصل السابع والعشرون

ثيودور

1

في صباح 25 مايو، توجه كاس باسبيك ابن الثانية عشر إلى مدرسته كما هو المعتاد. تلك المدرسة الخاصة باهظة المصاريف التي تستهدف مساعدته على تحسين التخاطب لديه والتحكم في عضلاته.

وفي شارعٍ آخر من شوارع نفس المدينة، كان إرنست سبنجلر والد كاس الحقيقي (لكن غير الرسمي) متوجهاً صوب مصحة جورج روزنبرج التي لم يرها منذ أعوامٍ عدة وكان يتجنب المرور بمحيطها.

دخل الصبي الصغير كاس إلى المدرسة التي استقبلته بلطف كما هو المعتاد. كان طفلاً معاقاً، وبالتالي كان كل شخص معاف بالنسبة له في محيطه يعامله بشفقة واحترام، يبدو أن بعض من ذلك الاحترام كان بسبب والده ثيودور باسبيك، والذي على خطى أبيه، حصل على لقب "رجل العام"، وذلك بعد أن نشر أخيراً البحث العلمي الذي شغل حياته لعقود. خمسة مجلدات يتكون كل منها من أكثر ثمانمائة صفحة. نُشِرَت المجلدات الخمسة في وقت واحد، حسب تعليمات مؤلفها الصريحة. انشغلت كافة المجلات - حتى غير المتخصصة منها - لشهور في مناقشة التقارير، والتعليقات. والتحليلات الخاصة بالنتائج التي توصل إليها بحث ثيودور باسبيك. تألفت المجلدات الأربعة الأولى في أغلبها من مجموعة خاصة من الحقائق والصور الحصرية التي تستعرض ضحايا المذابح

المختلفة عبر التاريخ المسجل. عرضت مقدمة المؤلف معايير دراسته: "لقد أهملت الحرب"، "المواجهات العسكرية بين قوة وأخرى، مهما كانت غير متكافئة، لأنها غير ذات صلة بهذا العمل، والذي يركز على المناسبات التي واجهت فيها القوة الضعف وفقط.". عرّف باسبيك كلمة "القوة" بأنها "شيء مشحون بطاقة أصيلة، وعلى الرغم من ذلك غير مباشرة " وأيضاً "غير قادرة على العمل على تعريض شيء آخر مشحون بطاقة مماثلة للخطر (قوة أخرى)".

ومن ثم، أوضح دكتور باسبيك أن القوة تظهر حسب محيطها، غير مشحونة: القوة تصبح قوة في حالة واحدة فقط؛ هي أن تواجه الضعف.

وبناءً على هذه المعطيات، فإن الشعوب "الضعيفة" غير ذات القدرة على مقاومة أو حتى تهديد أي جيش معادي لا يمكن أن يُنظر إليها على أنها "ضحايا بريئة"، لأن الأمر لا يتعلق بطرف بريء في ناحية وطرف شرير في الناحية الأخرى. يرى ثيودور، أن الخوف أمر نسبي قائم على احتمالية، لا على نية أو رغبة. قد يتحول شعب "ضعيف" في أقل من مائة عام إلى أمة قوية؛ إما من خلال التعلم من آخر هجوم تعرضت له، وإما ببساطة أن شعوب "ضعيفة" أخرى مجاورة أقل قدرة على الدفاع عن نفسها. أكد باسبيك أن بحثه أوضح أنه لا يوجد ما يُسمى بدولة أو شعب كُتب عليه المعاناة، ولا شعوب وهبت عبقرية خاصة تسبب العناء لغيرها. أضاف باسبيك: "إن اخترت لحظة تاريخية معينة، أو عام ما وحللّتها من منظور شامل، ستتعرف على خلل في ميزان المعاناة التي توضع فيها أمة معينة..." (حاول باسبيك أن يستخدم كلمات محايدة على قدر الإمكان)، ففضّل استخدام تعبير "الأمم التي تفرض المعاناة على غيرها" بدلاً من "الجزارين"

وفضّل استخدام تعبير "الأمم التي تجسد المعاناة" بدلاً من "الضحايا". ولكن انعدام التوازن ذلك تحديداً - والذي يمكن أن يكشفه تحليل أبسط من تحليل باسبيك - والذي، حاول التاريخ بشكل عام، تصحيحه على مر السنين - جعل ثيودور يقول: إن ذلك التاريخ لم ينتهِ. في الواقع تاريخ الرعب مازال في مهده، وفي القرون المقبلة سنصبح ضحايا لمجازر أخرى. سنشهد موت مليارات البشر، وهذا الأمر من دون شك يلوح في الأفق.

كان ذلك الجانب من بحث باسبيك الذي سبب ثورة عارمة بين الدوائر الفكرية، نظراً لأن فرضيته تقول أن التاريخ سيعيد نفسه مراراً وتكراراً حتى تصبح المجموعتان "المجموعة A: الأمم التي تفرض المعاناة" و"المجموعة A^1: الأمم التي تعيش المعاناة" متوازنتين "مع عدد ضحايا المجازر المتماثل في أي جانب" عندما يتحقق هذا التوازن - من حيث التكافؤ المطلق بين العنف الذي يمارسه طرف والعنف الذي يخضع له طرف آخر - ببساطة ستتوقف الحياة كما نعرفها، وستفنى الإنسانية.

كان لتلك النظرية عواقب مباشرة، وعملية؛ وبالتحديد، على وجهة نظر باسبيك، في المجلد الأخير من العمل - وبعد عرض الأدلة المرهقة عبر المجلدات السابقة، كمثال أي الشعوب عانت بصورة أكبر ومتى سيحدث ذلك - في *المذابح القادمة*. وصل باسبيك إلى نقطة الذروة في كتابه ("رصاصة الرحمة القاسية"، وفق قول بعض النقاد؛ أو "التفسير غير اللازم لنقطة ملتبسة"، كما يرى الرافضون) عندما وضع جدولاً يرصد كل شعوب العالم "المعرضة بشكل كبير للمذابح" في القرون المقبلة، وكذلك كل الشعوب التي ستتسبب في "ذبح الشعوب المستضعفة"، حتى أن باسبيك ذهب بعيداً إلى حد الإشارة إلى أعداد القتلى المتوقعة.

البلدان الوحيدة التي خرجت من هذا التصنيف سالمة من دون أذى هي تلك الدول التي لم تتعرض مؤخراً (على مر القرون القليلة الماضية) أو لم تكن من ضمن ضحايا لمجازر كبرى. وبرغم ذلك، فإن أغلب دول العالم منخرطة في التصنيف، حتى أن تلك الدول لم تكن بعيدةً عن التصنيف،

ولم يستغرق الأمر الكثير من الوقت ليتسبب بحث باسبيك في فضيحة - ليس على صعيد مجال الصحة النفسية، والذي ينتمي إليه باسبيك اسمياً. ولكن على الصعيد الاجتماعي، أي دولة في العالم ستقف مكتوفة الأيدي في حين ينشر شخص أجنبي قائمةً صغيرة تتضمن اسم تلك الدولة بوضوح وعلانية، معلناً للعالم أن تلك الدولة - إن عاجلاً أم آجلاً - إما سترتكب فعلاً مرعباً فاضحاً وإما ستعاني منه؟ كلا الخيارين غير محبب.

وكما هو متوقع، قوبلت دراسة باسبيك بأكثر بهجوم شرس شنه علماء بعض الدول التي ركّز عليها باسبيك في قائمته الفظيعة. ولكن الأمر المثير للجدل والذي تحدث عنه ثيودور في السنوات التالية أن ردود الأفعال التي خرجت من الدول التي توقع باسبيك أن تكون "الطرف الذي يفرض المعاناة" كانت بنفس الدرجة من العنف الذي اتسمت به ردود الأفعال التي خرجت من الدول التي توقع باسبيك أن تكون "الطرف الذي يعيش المعاناة". من الواضح أنه كان على نفس القدر من الإساءة أن يتم تصنيفك كـ" مستبد مستقبلي" أو كـ"ضحية مستقبلية". فمن الناحية النفسية، هذا يوضح أن الذعر من احتمال الوقوع في أي من التصنيفين، كان متماثل بشكل أساسي. بمعنى أن كلا الحالتين الإنسانيتين الأصيليتين (الضحية والمستبد) تحملان معهما إحساساً بالعار مساوٍ لهما بنفس المقدار (إحساس منبعه نفسي غامض، بالتأكيد)؛ طريقة أخرى تتطابق فيها طريقة عمل الرعب تماماً، حسب تفكير باسبيك.

نعم، العالم عبارة عن صراع بين طاقتين، طاقة إيجابية وأخرى سلبية، وسينتهي عندما تقضي كل طاقة على الأخرى. عندماً يصل

الحساب الختامي، للصفر العام، الشامل - بل هو أيضاً الشخصي، والمصغر - .. نهاية كل شيء.

بناءً على فرضية باسبيك التي تقول بأن ما ينطبق على التاريخ الإنساني ينطبق كذلك على حياة الفرد، فإن ذلك يعني - من الناحية النظرية - أنه من الممكن لأي شخص أن يتوقع اليوم الذي يموت فيه. وذلك ببساطة لأن "وقتما يحين موعد الموت - إن عاجلاً أم آجلاً - سيكون هو اليوم الذي ستلغي الطاقتان الإيجابية والسلبية، وكذلك الديون الواجبة والمستحقة، كل منهما الآخر، وتنتهي إلى الصفر ".

وبالرغم من أنها الخطوة المنطقية التالية من نظريته، إلا أن ثيودور أعفى نفسه من تصميم أي قوائم جديدة تعكس التوازن بين المعاناة التي تسبب هو نفسه فيها أو يتعرض لها، وبالتالي ما قد يحمله له المستقبل. ليس ذلك بسبب أنه لم يكن صادقاً في اعتقاده بإمكانية تطبيق نتائجه العامة والتاريخية على حياة شخص ما، في الواقع: كان ثيودور صادقاً مع نفسه إلى أبعد درجة، إلى درجة تصل إلى الإيمان، حسب زعمه، فقط كان يريد أن "يتفاجئ".

وبمناسبة الحديث عن الإيمان، لم يمر البعد "المثير" في بحث باسبيك مرور الكرام. تحدث أحد النقاد عن باسبيك في هذه الجزئية بصورة قد لا ترقى إلى العلمية:

دكتور باسبيك، أنت لست عالم وفقط، أنت مؤمن أيضاً. ربما هذا هو السبب الذي جعل أطروحتك العلمية من الوزن الثقيل: طرقك البحثية، صارمة، عززها إيمانك في كل ركن فيها. نحن، مجرد علماء، لا

نميل كثيراً إلى مسألة الإلهية، ومن ثم فإننا سنرد عليك بالصورة العلمية التي نعرفها... ولهذا السبب فإننا إذا ما اختلفنا، ستصبح أنت الفائز دائماً.

ولكن بعدها بقليل ظهر رد آخر أقل تعاطفاً مع باسبيك في إحدى المجلات العلمية: عمود الافتتاحية بقلم عالم كان معروف إلى حد ما، وربما شهيراً، في مجاله - علم الأحياء أكثر من علم النفس - والذي أشادت به إحدى البلدان التي ضمتها إلقائمة. وبعد الاستشهاد بالأدلة لدحض نظريات ثيودور خطوة خطوة، اختتم مقاله بالفقرة التالية:

"دكتور باسبيك المبجل، اسمح لي أن أوجه كلامي إليك مباشرةً قليلاً، قبل أن أضع قلمي. سيدي، كونك قمت بنشر هذه الدراسة، وبعدما أشهرت نتائجك المضطربة هذه القائمة على حساباتك الموسعة والجديرة بالثناء كذلك، أقول لك أنك بعدما فعلت ذلك فإنك قد قدّمت نفسك لا بصفتك عالم - ولكن سامحني - بصفتك مجنون."

"وهكذا"، أكمل عالم الأحياء حديثه - في الوقت الذي كان ثيودور يعلم فيها جيداً أن كل فرد في المدينة قد اطلع على هذا الافتراء - "هناك هدف بسيط وراء استمراري في إضاعة وقتي في المناقشة العلمية معك. سوف أرضي نفسي بأن أوصيك - وأتوقع أنك تعلم جيداً هذا النوع من التوصيات التي طالما أوصيت بها - بأن تسلم نفسك لمصحة جورج روزنبرج الشهيرة، والتي ربما تتذكر أنها أولت لأسرتك خدمة كبيرة.

"هناك، سيتابع حالتك مجموعة من الأطباء المحترفين، وربما يعود إليك بعض صوابك وقدرتك على التمييز ... ومع الوقت، ربما تجد تفكيرك

أصبح مجدداً على مستوى القيام ببحثٍ علمي حقيقي - وهي الكفاءة التي تأكد غيابها عن طريق نشرك لهذه الترهات الدينية.

3

نظراً لأن استنتاجات عالم الأحياء كانت معتبرة بشكل أساسي، وكذلك، معززة بسمعته الطاغية، فإن ذلك الهجوم كان بمثابة نقطة تحول كبرى في استقبال دراسة باسبيك. ذلك الهجوم كان أيضاً بمثابة نقطة انطلاق لسلسلة من الهجمات الشرسة من علماء آخرين، علماء فككوا نظريات ثيودور وفرضياته. لم يستمر الصخب الذي تبع نشر مجلدات ثيودور الخمسة - ثمرة عمل ثيودور طوال حياته - إلا أعوام قليلة، وتلك المجلدات صار يُشار إليها فيما بعد بنتاج "عقلية شاذة" قائمة على "تلميحات بذيئة ومهينة" لأعراق معينة. "رجل العام" أصبح منسياً، بل وصار منبوذا. لن يتجدد أي اهتمام به في عشرات الأعوام التي تلت. لم ينفد الإصدار الأول من الكتاب على الرغم من الضجة المبكرة التي حققها. الأجيال اللاحقة بالتأكيد كانوا سيجدون جزء أو آخر من الأجزاء الخمسة للبيع في محلات بيع الكتب المستعملة وسط الأعمال الأخرى القديمة والرخيصة والمنبوذة: قبع كتاب ثيودور وسط كاتلوجات تشرح تكنولوجيا بالية، كتب الطبخ القديمة لدرجة عدم استطاعتك التعرف على مكونات وصفاتها. صار كتاب ثيودور من ضمن الكتب التي يقول عنها الباعة "عفا عليها الزمن".

جيلين بعد باسبيك، صار ثمن مجلد واحد من بحثه لا يزيد عن ثمن فنجاني قهوة.



الفصل الثامن والعشرون

كاس وإرنست وجومبرز

1

في صباح 25 مايو، توجه كاس باسبيك ابن الثانية عشر إلى مدرسته كما هو المعتاد، تلك المدرسة الخاصة باهظة المصاريف التي تستهدف مساعدته على تحسين مهارات التخاطب لديه والتحكم في عضلاته.

وفي شارعٍ آخر من شوارع نفس المدينة، كان إرنست سبنجلر والد كاس الحقيقي (لكن الغير رسمي) متوجهاً صوب مصحة جورج روزنبِرج التي لم يرها منذ أعوام عدة - كان يتجنب المرور بمحيطها.

توجه كاس باسبيك إلى المدرسة، في الوقت الذي كان فيه إرنست - الأب الذي لم يره مطلقاً - يستعد للقاء جومبرز الذي لم يزل على منصبه كمدير للمصحة التي كانت مسكناً له.

انتظر إرنست في الاستقبال لفترة طويلة. علم المدير أنه بالخارج، حيث قال لسكرتيرته: سأقابله بعدما انتهي من أمرٍ ما في يدي. كان إرنست جالساً يسند ظهره منتظراً في غرفة اعتاد الجلوس والانتظار فيها لمراتٍ عديدة في الماضي. نظر حوله ليرى تلك الصور التي حاولت أن تحجز لنفسها مكاناً في عقله منذ زمن بعيد، ولكنه أغلق الباب في وجهها حينها

جنباً إلى جنبٍ مع "المشاعر السلبية" التي سببتها تلك الصور. كونه زائراً لا نزيلاً للمكان جعله يرى كل تفصيلة بشكل مختلف.

ظلت بعض الأشياء في نفس مكانها الذي يتذكره إرنست. عندما رأى طفاية السجائر التي "قابلها" منذ عشرة سنوات في نفس مكانها بالضبط مستقرةً على نفس قطعة الأثاث، جاءه ذلك الإحساس الغريب بوجود خدعة سحرية تعمل لصالحه. شعر حينها أن إدارة مصحة جورج روزنبرج قد جمدت الوقت نوعاً ما. في الحقيقة، كان "التجمد" هو وصف مناسب للحياة داخل المصحة، نعم، لقد جمدوه لفترة طويلة بالصورة الكافية ليعود مجدداً للعالم متأخراً خطوة هو وزملاء المصحة. حملق إرنست في طفاية السجائر الأبدية، يفهم بوضوح أن الأمر كان متعلقاً بسرعة الأشياء. الآن صار إرنست أكبر سناً، بالتأكيد، قضى وقتاً في العالم الخارجي، ولكنه لم يكن نفس العالم الذي تركه من قبل. عندما كان قوياً فيما مضى وحينما كان يتحرك أسرع من العالم، أخذوه من بين بقية الناس - وفور أن بدأ يضعف، ألقوا به إلى العالم من جديد. أصبح العالم أقوى، في حين أصبح إرنست ضعيفاً.

لم يرَ إرنست ميليا منذ ذلك الحين. من ضمن الأمور "الإيجابية" التي توجه بسببها إلى المصحة - ذلك المكان "السلبي" - سؤال المحترم دكتور جومبرز عن عنوانها. كان يريد أن يتواصل مع ميليا مجدداً، وليعلم ما إذا رأت ابنهما، وكذلك ما إذا كان بإمكانه - هو إرنست سبنجلر، الرجل الذي لا يمتلك حقوقاً مثله مثل الطفل كاس باسبيك - رؤيه الصبي كذلك، ولو لساعات قليلة. صار هذا الشعور أقوى وأقوى في الشهور الأخيرة من حياة إرنست، ثم تحول الشعور إلى هوس: رؤية ابنه!

هل الصبي بخير؟ هل الصبي بصحة جيدة؟ أمر بشع ألا يعرف. رفض إرنست أن يترك نفسه للظنون.

كان بإمكانه بالطبع محاولة معرفة أي أخبار عن ابنه من خلال ثيودور باسبيك، "الباحث المرموق". ولكن لم تكن لديه الشجاعة الكافية. كان إرنست يشعر بالهيبة وضآلة حجمه أمام ثيودور. أما ميليا، فبالتأكيد كانت لتسمح له برؤية ابنهما ... وربما تسمح له بالحديث معه.

ولكن رؤية ميليا من جديد سيسبب صدمة لكليهما، ربما صدمة أكبر من رؤية جومبرز نفسه. فتلك الرؤية ستعيد للأذهان الأيام التي أمضياها سوياً، الواحد تلو الآخر، كل أيام جورج روزنبرج.

- المدير سيقابلك الآن.

الفصل التاسع والعشرون

إرنست وجومبرز وميليا وهينرك

1

"عزيزي سيد إرنست سبنجلر، لقد مر وقت طويل. تبدو بخير حال. لاحظ أني مازلت أتذكر اسمك."

شعر إرنست بالاشمئزاز عند رؤية جومبرز، ملمس يده الرخو، غير الودود ربما كان أسوأ ... يد مهينة، قال لنفسه.

تفضل يا عزيزي سيد سبنجلر - فأنا لا يأتيني "تلميذ" قديم لزيارتي كل يوم. تفضل واجلس. دعنا نتكلم قليلاً، فقد خصصت لك عشر دقائق فقط. اعذرني لأني جعلتك تنتظر، ولكن كالعادة لدينا أعمال كثيرة لننجزها. فمرضانا - أنا متأكد أنك تعلم ذلك، بحاجة إلى رعايتنا الدائمة. ولكن دعني أخبرك أن لدينا أماكن متاحة قليلة لمن يحتاج مساعدتنا، أظن أن هذا أفضل دليل على أدائنا الجيد، أليس كذلك؟ أخبرني، هل تتذكر وقتك هنا؟ كانت نسبة الإشغال حينها لا بأس بها، حتى أنها تحسنت الآن.

"عزيزي إرنست سبنجلر، لقد افتقدت مناداة اسمك. عزيزي إرنست، أتعلم، لقد كنت محظوظًا بقضاء بعض الوقت في المصحة الأفضل في المدينة ... والآن، بعد كل هذه السنين - كم سنة، هل تتذكر؟ لا أستطيع

العدّ! والآن، كما كنت أقول، مازلنا الأفضل. أنا فخور جداً بالعمل الذي ننجزه هنا، وأتمنى أنك كذلك أيضاً.

كان جومبرز متوتراً. ربما بنفس قدر توتر إرنست. كل ما قاله جومبرز مسبقاً كان استعراضاً زاعقاً للعضلات، لا تواضعاً مهذباً منه: بصق جومبرز، نعم، بصق تلك الكلمات فقط ليستعرض أمام إرنست كم هو شخص متوقد كما كان على الدوام، وأنه مايزال بكافة قواه الجسمانية والعقلية كذلك. نعم، ربما يراه "تلميذه" السابق أكبر سناً قليلاً وأكثر انحناءً، ولكن لا تخدعنه المظاهر، لأن جومبرز كان، كالعادة، هو المسيطر ... مثلما كان إرنست، كالعادة، ضعيفاً.

"حسناً، إرنست، أخبرني، ماذا أتى بك مجدداً إلى مصحتنا العزيزة؟ أخبرني كيف حالك؟ ماذا فعلت؟ نحن نهتم كثيراً بكل من مر علينا، وبالطبع، نتابع تطوراتهم. إن نجاحات تلاميذنا هي دليل على نجاح عملنا هنا. أجل يا إرنست، نحن هنا معلمون عاطفيون في مدرسة. صدقني يا إرنست عندما أقول لك: أنا متأثر جداً لرؤيتك، خصوصاً وأنت على هذه الحالة الجيدة. حسناً لا تشوقني أكثر من ذلك وأخبرني: ماذا تفعل الآن؟"

كان سبنجلر هادئاً، ثم إجاب باقتضاب وبشكل غير مباشر، بصوت لاحظ تسلل نبرة غريبة إليه:

"أردت أن أراك مجدداً. لم أستطع إخراجك من بالي لسنين ..."

لاحظ جومبرز على الفور عدوانية إرنست.

"هذا أمر طبيعي يا صديقي، فالوقت الذي أمضيته هنا لم يكن هيناً - لقد عانيت بعض الصعوبات، وكان لزاماً علينا أن نكون صارمين معك. لا شيء يُنجز هنا إلا ببعض "الحزم" ... أتمنى ألا تكون قد أخذت الأمور بشكل شخصي ..."

"قبل أي شيء"، قاطعه إرنست "أنا هنا لأحصل على عنوان ميليا."

ساد الصمت، وأخذ جومبرز في تقليب الأوراق المبعثرة على مكتبه بأطراف أصابعه كما يفعل دائماً قبل أن يقول شيئاً هاماً:

"آسف يا إرنست، لا يمكنني إعطاؤك تلك البيانات السرية، اللوائح لا تسمح بذلك."

حاول إرنست الحفاظ على تواصله بالعين مع جومبرز الذي قال:

"ببساطة، لا يمكننا إعطاء بيانات نزيل سابق لنزيل سابق آخر. لو كنت قريبها، مثلاً ... على أي حال نحن لا نعرف عنوانها الحالي. أنا أتذكرها جيداً، بالتأكيد، ولكننا لم نعد على تواصل معها، ولا نعرف ما تفعل بحياتها الآن، ولا نعرف أين تسكن."

ساد الصمت بينهما مجدداً.

ثم أتبع جومبرز:

"هل جربت السؤال عنها؟ مع اسم مثل ميليا لن يكون من السهل عليها الاختباء."

"لم أستطع العثور عليها."

قام جومبرز من مقعده في إشارة واضحة منه لإرنست على انتهاء لقائهما وقال:

"أنا آسف جداً، ولكن على أي حال اترك بياناتك وإذا توصلنا لشيء، ربما ... ربما يمكننا التغاضي عن بعض لوائح الإدارة الصارمة."

وبصورة غريزية أطاع المدير - ندم على ذلك فوراً - كتب عنوانه ورقم هاتفه، ثم قال:

"يجب أن تعرف مدى أهمية العثور على ميليا بالنسبة لي."

طبعاً يا إرنست، لا تقلق، فقلبي ليس حجراً ... أنت لا تعرفني على حقيقتي مطلقاً! سأفعل أي شيء لأجمع بينكما مجدداً. تأكد من ذلك.

وبينما كان إرنست في طريقه لخارج المكتب - وقبل أن يغلق الباب وراءه، التف وسأل: "هل تعلم السبب الحقيقي الذي دفعني لرؤيتك؟"

ابتسم جومبرز، ولانت ملامح وجهه، متقمصاً دور "المنصت الجيد"

أكمل إرنست: "هل تتذكر، ما اعتدت أن تقوله لنا طوال الوقت ... كنت تقول لنا أن صحة الفرد العقلية لا علاقة لها بما *يفعل*، ولكن بما يفكر. هل تتذكر ذلك؟ هل تتذكر وأنت تسألنا: "فيم تفكرون؟" هل تتذكر كيف كان ذلك السؤال يزرع الرعب في نفوسنا؟ حسناً ... لو كنت لتطرح عليّ هذا السؤال اليوم وأنا أشعر بتوازن أكثر ... أتعلم ما كنت سأقول؟ سأقول أني في الأيام الأخيرة، كنت أفكر في قتلك. أعتقد أني احتجت لمقابلتك لأزيح عن صدري تلك الرغبة ... وفي الحقيقة، إن تلك الرغبة لم تعد تواتيني، لقد اختفت. أيها المدير جومبرز، لقد كنت أراقبك

بدقة الآن، وجهك، حركاتك ... ولا أعرف ما إذا لاحظت ذلك أم لا. ولكنت رجل عجوز الآن ... إن لم أكن أعرفك، وقابلتك في الشارع، لكنت حاولت على الرغم من ضعفي أن أساعدك على عبور الطريق. ولذلك سأتوقف عن التفكير فيك، سيدي المدير. أنت لست وحش كما ظننت ... أنت مجرد كهل، أتفهم؟ الصبي لم يعد يلزمه الجري. إنه يواجهك وينظر إليك مباشرة - وهو سعيد."

خضعت لعملية جراحية، ثم أخرى، أربع عملياتٍ جراحية إجمالاً. الآن ألم - يتردد صداه بعمق في منتصف جسدها. في مرضها، رددت على نفسها أنها قيد الاختبار، طريقة تعلمها كيف تصمد أمام الألم. ربما: تجلياً لرغبتها أن تقترب من الرب القدير. لكن في الليل توصد الكنائس أبوابها.

الرابعة صباح يوم 29 مايو. ميليا عاجزة عن النوم. ألم متواصل، يأتي من معدتها - أو ربما أسفل المعدة. من أين يأتي الألم تحديداً؟ ربما من الرحم. لا تعرف الآن سوى أنها الرابعة صباحاً وأنها لم تذق طعم النوم. لم يكن حتى بإمكانها أن تغمض عينيها خشية الموت.

تلقت ميليا ظهر ذلك اليوم مكالمة هاتفية من دكتور جومبرز. مرت سنوات على آخر مرة سمعت فيها. ولكم شعرت بالاشمئزاز لسماعه! مدير مصحة جورج روزنبرج.

"سأعطيكِ عنوان ورقم هاتف إرنست سبنجلر." قالها لها بعد تحية رقيقة: "لقد كان في مكتبي صبيحة اليوم ويرغب بشدة في التحدث إليكِ." عبّر جومبرز أيضاً عن مدى سعادته من حسن حالها. قال أن صوتها يبدو "قوياً ومعاف".

أرادت ميليا أن تشكره على حقيقة أنها.لم يعد أمامها الكثير لتعيشه، ولكنها امتنعت.

استغربت لمَ يتصل جومبرز بنفسه. كان بإمكانه إسناد المهمة لأحد الموظفين.

لم تهتم. فما تبقى من يومها قد فسد. سكن صوت الرجل أذنها. كان صوته يتمخض في أذنها كأنه سائل ما، حتى أنها أدخلت إصبعها في أذنها وأخذت بالتنقيب بحثاً عن صوته لإخراجه، همهمت: *فاجر!*

صوت جومبرز فتح باباً لسيل من الذكريات. ميليا وجدت نفسها تفكر في أشياء نجحت في تجنبها لسنين. *عليكِ أن تأكلي*، هذا ما كانوا دائماً يقولونه لها في الكافيتريا، حتى عندما تخبرهم بأنها لا تشعر بالجوع ... وعلى ذكر المصحة، تذكرت باب مصحة جورج روزنبرج، والكتاب الذي سقط منها على الأرض، وصفعة التي تلقتها بسبب هذا الكتاب، لأن هذا الكتاب "الكتاب الأهم"، الإنجيل، كان مليئاً بالدبابيس، *من فعل ذلك*؟ آه، لقد قام أحدهم بتدبيس بعض صفحات الكتاب المقدس سوياً. كانت الصفحات رقيقة للغاية مكتوب عليها كلمات تبيِّن أنها مقدسة. يا لها من مصادفة أن تكون كل تلك الكلمات المقدسة في كتابٍ واحد! أجل، هو كتاب مصحة جورج روزنبرج العظيم المليء بالدبابيس. تذكرت ميليا كيف ضحك المرضى الآخرون حينما حاولت إحدى الممرضات فك بعض الصفحات عن بعضها البعض من دون تمزيقها - سفر الجامعة، يا الفاجر، القديس مرقص، القديس لوقا، رسالة إلى أهل روما، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس. لقد دبّست كل تلك الصفحات مع بعضها البعض أيها المخنث! وتذكر أن الرب في "الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس" يقول: "آخر عدو يبطل هو الموت". ولكن ليس هذا هو الجزء الأفضل ... الجزء الأفضل عندما يقول الرب: "بأي جسمٍ يأتون؟"

ظلت ميليا مستيقظة طوال الليل من شدة ألمها حتى صارت الساعة الرابعة صباحاً، ومع ذلك الألم المزمن صار النوم مستحيلاً: "بأي جسمٍ يأتون؟".

في الآحاد، اعتاد دكتور جومبرز تلاوة بضع فقرات من الإنجيل على مسامع نزلاء مصحته بنفسه: الإيمان يجعل عقل المرء صحيحاً ويصح به الجسد. كان يؤمن بالتضحية بالنفس مقابل الثواب من الرب، حيث كان يقول دوماً: "سوف نتغير". (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس 15: الآية 51): " هوذا سر أقوله لكم، لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغير". كان دكتور جومبرز يستخدم نبرته السلطوية، إيماناً منه بأن ما يفعله ضرب من ضروب العلاج ... "كلنا نتغير". (إنجيل متى 4: الآية 1): "ثم أُصعد يسوع إلى البرية من الروح ليُجرب من إبليس. فبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلةً ..."

قالت ميليا: "جاع أخيراً".

3

كانت ميليا في الشارع بالفعل وقررت أن تتوجه إلى الكنيسة - كانت حاجة ماسة بالنسبة لها. كانت منزل إرنست بجوارها بالفعل، ولكنها لم ترد مقابلة إرنست سبنجلر، فكم مر من سنين على آخر لقاء بينهما؟ فكّرت ميليا قليلاً وقالت لنفسها: لقد عشت حياتي، وأنا الآن في عالمٍ آخر، وليس بالإمكان العودة للوراء.

نظرت في قطعة من الورق كتبت فيها عنوانه ورقم هاتفه. كان إرنست فيما سبق أيام مصحة جورج روزنبرج، صاحب وجه جميل، إن صح القول. وقعا في الحب بسبب وجهه: لأن المرأة بمقدورها قراءة وجه الرجل، ولكن ميليا، تقرأ الرجل بصورة مختلفة، فكانت تنظر إلى خفاياه، تنظر إلى الطبقات أسفل جلده، الطبقة تلو الأخرى، تنظر إلى طبقة المشاعر ... كانت ذقن إرنست نحيلة وعيناه مربعتين، وكأنه قائد عسكري وقت الحرب: عيناه كانتا مسيطرتين، كما تقول. كانا يتبادلان القبلات خلف شجر العشاق؛ ويمتلئان بالإثارة سوياً، لدرجة أن ميليا عادت وعلى رقبتها آثار تلك القبلات. أخبرتها جلوري كم أن إرنست رجل جميل، ولكن ميليا تظاهرت بأن جلوري قالت أن إرنست رجل دميم.

كان الليل مهجوراً حينما قابلت ميليا متسكعاً في الشارع.

تفاجأ الرجل، وقال أنه لا يعرف. كنيسة؟

"قم وخذ الصبي وأمه وأذهب إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي" (إنجيل متى 2: الآية 20)

هل تعرف لو كانت كلها مغلقة في هذه الساعة؟ الكنائس.

حذاؤها مستو على الأرض. تذكرت وجهاً مرة أخرى، لكن ليس وجه حبيبها، وجه جومبرز. تذكرت حينما أجروا لها تلك الجراحة. قالوا لها: لا أحد يموت في فصل الربيع في جورج روزنبرج - لا تقلقي، هذه مجرد جراحة روتينية.

فكّرت في كاس، ابنها: لقد أتم الثانية عشر منذ أيامٍ قليلة. يجب أن ترى الأم ابنها، ابنها الجميل - ولكن، من الواضح، كاس لم يكن: ولداً جميلاً. آه، وجهه لا بأس به مثل إرنست سبنجلر وجه جميل كوالده، ولكن ليس بقيته. العرجة السخيفة، طريقة كلامه - لا يجب أن يترك الآخرين يسخرون منه، لا يجب أن يسير أمامهم، يجب عليه أن يجلس فقط حتى يبلغ رشده.

أحياناً، كان لا يسعها إلا إن تلاحظ قلة اهتمامها بابنها. ماذا يمثل بالنسبة لي؟ لقد أخذوه مني. صحيح أن كاس اسم جميل، ولكنه لم يترك لي أي سبب لأكون فخورة به بسببه.

"الكنيسة مغلقة. هل لديك فكرة أي كم الساعة الآن؟ تقترب من الخامسة صباحاً. لم يكن عليك الخروج بأي حال. هذا حي يسوده الشر ليلا. هذا خطر."

"أحتاج بشدة للدخول ..." قالت ميليا.

قال الرجل: عودي في الثامنة.

"هل تعرف أي كنائس أخرى مفتوحة الآن؟"

4

كانت ميليا جائعة لدرجة أنها بذلت جهداً للتفرقة بين شعورها بالجوع وشعورها بالألم الذي أكد الأطباء أنه سيقتلها. قال العلم أنها ستموت ... الأمر يحتاج لمعجزة.

في إنجيل متى، أن الحكماء الثلاثة، أتوا من المشرق إلى "أورشليم" ورأوا الطفل، ثم أعطوه هدايا. ثم أوحى إليهم الرب أن ينصرفوا في طريق آخر.

توجهت ميليا صوب شجرة للتبول أسفلها، وعندما انتهت من حاجتها وجدت نفسها على الجانب الآخر من الكنيسة ... ظهر الكنيسة.

أدركت وهي بجوار الكنيسة أن كلا الألمين داخل جسمها يغالبان بعضهما البعض: جسمها يشهد معركة بين ألمٍ سيقتلها، الألم الشرير كما تسميه، ألم المرض. أما الألم الآخر، الألم الحميد، ألم الجوع، ألم نبع من الحاجة للأكل ... ألمٌ يمثل الحياة، ألم الوجود كما تسميه: ومع ذلك، وكأن ألم معدتها، وحتى في سكون الليل، إشارة جلية إلى إنسانيتها ... وكذلك علاقتها الملتبسة بأشياء لا تعيها في هذا العالم. أجل! ما زالت حية ... ذلك الشعور بالجوع، دليل الحياة يؤلمها أكثر، الآن، بطريقة محسوسة جسدياً، من الألم الذي تعلم جيداً أنه سيقتلها. وكأنه، في هذه الليلة، صارت كسرة خبزٍ تأكلها أهم من أن تعيش للأبد.

تلفتت ميليا حولها وقالت لنفسها: من أين آتي بشيءٍ آكله في هذا الوقت من الليل؟

وحينها، خلف الكنيسة، أخرجت قطعة الطباشير التي كانت في حقيبتها، ثم كتبت كلمة حروفها صغيرة للغاية لا تكاد ترى: *الجوع*.

أحسا بخفقانٌ جديد في معدتها - أُضيف إلى ألمها الثاني، الجديد. خفضت يدها، تركت قطعة الطباشير، وبدأت في المشي، قاصدةً شارعاً آخر. كانت جائعة، أصبح الألم لا يحتمل.

أثناء سيرها السريع، ذكرت نفسها، شبه مستمتعة بالفكرة، أنا جائعة جداً، لن أموت! مستحيل أن تموت وأنت جائع بهذا الشكل.

جعلها الجوع تشعر بأمانٍ غريب: حيث كان ألم الجوع بمثابة ضمانٌ لها، وعد، على الأقل في الوقت الحالي. لا يمكن أن يتسّحب الألم الآخر ويقتلني الآن طالما كان *هنا* الألم بهذه القوة! ومع شعورها بالأمان، حاولت أن تثني عقلها عن المطالبة بتناول الطعام، فبمجرد زوال هذه الرغبة سيزول معها الألم، ومن ثم سيعود الألم الآخر من جديد ... الذي يستطيع قتلها.

لاح ضوء في الأفق الآن، ربما صدر عن مقهى فتح أبوابه، عن يمينه كابينة تليفون. صار ألم الجوع أكثر وطأة. قالت لنفسها: ربما أحتاج تناول شيئا على وجه السرعة، وإلا سيكون الموت مصيري - ثم ضحكت.

توقفت عن الضحك. أخرجت قصاصة ورق مكتوب عليها رقم هاتف إرنست. أخرجت بضع عملات كذلك، وأسقطت واحدة في الفتحة، ثم ضربت رقم إرنست: رن جرس الهاتف. لم يرد أحد. أربع مرات، خمس، ست.

5

كان إرنست سبنجلر وحيداً في مسكنه بالطابق العلوي، مفتوح النافذة. جاوزت الساعة الخامسة من صباح يوم 29 مايو . كان اليوم السابق حافلاً. شيءٌ ما كان يضايق إرنست ... شيء قديم شرير. طردت رؤيته لجومبرز بعض الطاقة السوداء التي كانت تسكنه، ولكنه لم يتغلب عليها بعد.

فتح نافذته منذ عدة دقائق؛ كان هناك تيار يدخل شقته ويتحرك فوق قطع الأثاث ويغطي كل شيء بطبقة خفية من العالم الخارجي؛ لم يمر وقت طويل حتى صار خارج شقته وداخلها على وفاقٍ، كونا تحالفاً، وكأنهما ضدين ذابا في حيزٍ واحد. لم يعد صقيع هواء الليل وتهديده بحاجة للدخول عبر نافذة الشقة - كانا في كل مكان، كان هناك فقط *الخارج*.

كان حماس إرنست زائداً، الأفكار والصور تتدافع داخل عقله تجاه بعضها البعض بسرعة أكبر من المعتاد - وقبل أن تكمل صورة، تقفز أخرى مكانها، دائرته المعتادة مبتورة لحد الغموض. كل ما كان متيقناً منه هو تصاعد حدة الترقب لديه - دعوة للقيام بفعل ما. النافذة كانت كبيرة بما يكفي لتتسع جسم إنسان، جسمه أراد أن يتحرك، ليستجيب لهذا المنفذ المغري بشدة، وكأنه صُمم خصيصاً له: دعوة بسيطة لرجلٍ بسيط، لم يقدر على النوم، ليلة 29 مايو.

رن جرس الهاتف. حينها فقط توقف إرنست عن التفكير وذلك التسلسل من الأفكار والصور انهار - وكأنها كانت أشياءً ملموسة سقطت على الأرض بسهولة. توجه إلى الهاتف.

استمر الهاتف في الرنين مرات ومرات، خمس، ست، سبع، ثماني، تسع، عشر، إحدى عشر، إثني عشر، ثلاث عشرة، أربع عشرة مرة، ردّ إرنست.

سمع صوت يأتيه من الناحية الأخرى للهاتف، صوت يقول: إرنست! أنا قرب الكنيسة ... آلو!

إنه صوت ميليا.

ثم سمع صوت سقوط جسد.

انحنى إرنست فوق ميليا - التي استعادت وعيها لتوها.

تحسّس خدّها برفق بسبابته، قرب عينها اليمنى.

ابتسمت ميليا: الصوت الذي سمعته على الهاتف تجسد أمامها. إرنست جاءها عن طريق غير مباشر .

قالت ميليا لنفسها: تعرفت على يدك من قبل أن تراك عيناي.

"يمناك لم تذبل ... أترى يمناي؟ لم تذبل أيضاً."

ترجّاها إرنست أن تتوقف عن الكلام، ثم حاول أن يرفعها، لا يقدر.

"أين كنت؟" تساءلت ميليا.

تعانقا. ثم حاول إرنست رفعها مجدداً ... فشل، ثم سمعا صوتاً.

هل تريدان مساعدة؟

التف كلاهما للرجل، رجل اسمه هينرك أوبست جاء لتوه بعدما قتل صبياً صغيراً اسمه كاس - *كاس باسبيييك* مثلما كان ينطقه الصبي نفسه.

"أجل" قال إرنست: "إنها صديقتي، فقدت الوعي... أرجوك ساعدنا."

الفصل الثلاثون

إرنست وميليا وهينرك وثيودور وهانا

1

قال إرنست: "إنها ضعيفة."

هينرك: "سأساعدك."

أمسك كلٌ منهما بذراع، وسوياً تمكنا من إيقافها على قدميها، ثم توجهها بها وهي شبه مستندة بالكامل على هينرك، إلى أحد مقاعد الحديقة على بعد أمتار قليلة من الشارع.

قال لها هينرك: "اجلسي." جلست ميليا.

"أشكرك" قال إرنست "ساقي ضعيفة."

كانت ميليا مرهقة ولكنها ابتسمت لهينرك.

قال إرنست مجدداً: "شكراً على مساعدتك، نحن بخير الآن، لا حاجة لأن تعطل نفسك، أنا وهي صديقان قديمان. لقد أرهقناك بما فيه الكفاية."

هزّ هينرك رأسه. لا مشكلة، فلم يكن على عجلة من أمره، وبإمكانه المكوث معهما طالما كان ذلك ضرورياً.

شعر هينرك بالارتياح: فقد بدأت عدوانيته بالتلاشي. يبدو أن *قدرته على مساعدة الآخرين* - مهما كانت بساطة تلك المساعدة - غيرت شيئاً ما في جسمه: وكأنها سببت *انحرافاً لرغبته*. أسعده العلم أن بإمكانه أن يكون مفيداً لشخصٍ ما، نظرات الامتنان البسيطة، التي منحها له هذا الرجل وتلك المرأة أسعدته كذلك. كان معتاداً من الناس - وخصوصاً الأطفال - على إن ينظروا إليه بخوف، أو حتى تسخر من تلك الأكياس أسفل عينيه ... وقولهم أنه يبدو مثل بالقاتل.

ولكن الآن، يبدو أن هذان الإثنان سعيدان حقاً لرؤيته ... أو كانا كذلك، في البداية. بدأ هينرك في الإحساس بأنهما ربما أرادا أن يكونا وحدهما. أرادا أن يتحدثا سوياً، إنهما صديقان قديمان. لا يعرفانه. فهذا شيء طبيعي.

خطر في بال هينرك أمر لم يفهمه، يبدو أنه ذكّره برغبة طفولية في *الاستعراض* ... رفع قميصه وسحب مسدسه من بنطاله قائلاً لهما - بنبرة غير عدوانية إطلاقاً، وكأنه توقع منهما مديحاً:

"انظرا ماذا لدي."

تراجع إرنست وميليا.

في الوقت نفسه عندما غادر هينرك شارع كليرك بورتش، متوجهاً صوب الكنيسة، كانت هانا بصحبة دكتور ثيودور باسبيك داخل غرفة في أحد الفنادق.

لم يكن الفندق سيئاً، رغم أن ثيودور قادر على تحمل أرقى بيوت الدعارة - وأكثرها رفاهية - وتكتماً. ولكن كما أوضحنا من قبل لم يكن ثيودور يخشى مطلقاً من مشاهدة أحدهم له، هو نفسه لم يكن يملك هذه الدرجة من الحساسية. كان رجلاً مطلقاً - لم تكن هناك إمرأة في المنزل يلزمه الرد عليها. لديه ابن وحيد عرف كيف يربيه: حقيقة أن ثيودور كان يصطحب عاهرات من الشارع لم تجعل منه أباً فاسداً، حسب تفكيره. "أنا رجل" كان يفكر - هذا التوكيد البيولوجي المبالغ ألغى بداخله أي تناقضات أخلاقية في سلوكه. تلك القذارة، والمخاطرة، اللتان كان يستمتع بهما في شوارع المدينة كانا شيئاً لا يمكن استبداله ببيت دعارة راقي، ومتكتم. ومثل أبيه، توماس باسبيك كان ثيودور لا يقوى على مقاومة إغراء الشعور بأنه ترك خلفه حياته القائمة على الامتيازات المختلفة والتعليم الحديث، تلك الحياة المليئة بالكلمات اللطيفة المناسبة، التي توضع في مكانها اللائق بلطف. لا يقوى الرجل على مقاومة ترك تلك الحياة النظيفة والتوجه إلى حياةٍ يبدي فيها الرجال والنساء جهلهم كل لحظة، فضلاً عن كونهم يتقيأون البذاءات بدون تحفظ، مستخدمين لغة تافهة، بلكناتهم التي توسمهم بأنهم أتوا من الريف لا المدن - أجل، كان ثيودور يجد متعة خاصة مع هؤلاء. لكن المتعة لم تكن جنسية فقط: بل علمية أيضاً، فالرجل كان مدفوعاً للتعرف على هذا العالم من فرط فضوله

العلمي؛ كان ذلك بمثابة نتيجة مباشرة لغريزة "الباحث"، حتى أنه كان يخبر أصدقائه: أنه انجذب على حياةٍ لما هو غريب، غير مألوف، معرفة جديدة مفاجئة. يرى ثيودور أن أي باحث معتبر لابد أن يكون مدفوعاً برغبة أكيدة في الخوض في المجهول، اعتاد القول. لا يمكنك اكتشاف أي شيء جدير بالاهتمام بدون تحمل بعض المخاطر.

ولكن هذا لا ينفي أن الرجل كان لديه بعض الشكوك تجاه "متعه" الليلية. كان ثيودور يشعر أثناءها بالقلق ... بل حتى الخوف. بإمكان أي شخص أن يسرقه في أي لحظة ... فالأركان مليئة بأشخاصٍ يقدرون على سرقته بالفعل. لكن ما أقلقه بالفعل أنه قد يعطيهم السبب - دون قصد – ليَتَحَدّوه: أن يبرز فجأة سوء تفاهم. لم يكن ثيودور يتمتع بقوة جسدية، ولم يكن معتاداً على الاشتباك البدني ... الأمر واضح على مظهره، ولكن الأمر ليس بيده، فهو غير قادر على منع نفسه عن التوجه إلى تلك الناحية من المدينة، حتى وهو يعلم أنه قد يُقتل في يومٍ ما جراء ذلك ... ولن يكون أول من قُتل.

وها هو الآن هناك مرة أخرى، يبحث عن نساءٍ جدد، نساءٍ مختلفات. والليلة ميعاده سيكون مع امرأة تُدعى هانا تمكنت من أسره، وقد حددا ميعاداً غرامياً. تمتعت هانا بشخصية قوية، آمرة. تعطيه الأوامر. وقفت أمامه لتفتح باب غرفتهما ... قادته تنورتها القصيرة داخل الغرفة.

تفضل أيها السيد.

3

في نفس الوقت، وبالقرب من الكنيسة، كان الثلاثة - رجلان هينرك وإرنست وامرأة ميليا - يضحكون ويلهون بمسدس؛ ميليا تمسك بالمسدس الآن وقد أعجبت بثقله، شكل زناده، (قالت أنها لم تر مسدساً من قبل.) *وفي نفس الأثناء*، من يوم 29 مايو، في ناحية أخرى من المدينة، في يمكن وصفه أنه "شارع حيّ"، كان ثيودور طليق ميليا يشاهد فتاة ليل اسمها هانا وهي تتجرد من ملابسها في الغرفة رقم "14" في فندق ترتاده مومس شارع كليرك بورتش.

كان ثيودور على بعد مترين منها يرسم على شفتيه ابتسامه وهو يفك أزرار قميصه. خلعت هانا قميصها وفور أن سقطت حمالة صدرها سقط معها أثداؤها المترهلة، حتى بطنها تقريباً.

انتاب ثيودور شعور سيء أو ربما ضايقه شيء. تمكن أخيراً من رؤية جسم هانا بوضوح تحت الضوء الساطع لمصباح غرفة الفندق: ذلك الوجه الذي كان يبدو عليه الكمال والشباب في الشارع صار الآن ... لن أقول "قبيحاً"، ولكن صار "عادياً"، وأكثر من ذلك، تشوبه التجاعيد. حتى تلك الأثداء - تدلت بصورةٍ فجة على جذعها، من دون حلماتٍ تُذكر. تلك المرأة كانت كبيرة السن، منذ سويعات كانت تبدو وكأنها ابنة العشرين، ولكن الآن اتضح أنها قد تكون في الخمسين. خلعت هانا تنورتها وأنزلت سروالها الداخلي؛ تابعها ثيودور مرتجفاً، ثم أخذ خطوة قصيرة، لا تكاد تُحس، للوراء. كانت هانا حليقة العانة تماماً؛ يرقد مهبلها المتهدل فوق لحم فخذها الرخو، الذي انسال من على عظامها كسائلٍ لزج. على الجانب

الأيمن من مهبلها الجلف، الأحمر، العجوز: ظهرت بقعة داكنة ضخمة أكبر من يد ثيودور نفسه، بقعة داكنة في فخذها. لاحظت هانا أن رجلها ينظر إلى "ذلك الشيء" على فخذها، فقالت له: "إنه أثر حرق"، رغم ذلك، لم يسمعها ثيودور ... كان مرعوباً.

مازالت ميليا تمسك بالمسدس، أي فرحةٍ هذه التي كانوا يشعرون بها! وجهت ميليا فوهة المسدس صوب هينرك، الرجل الذي ساعدهما للتو؟ لم تعد تهتم بخلوتها بإرنست. لا تريد أن تتذكر الوقت الذي أمضته في جورج روزنبرج. لا تريد أي أحاديث عن الماضي. لا تريد أن يسأل إرنست عن ابنهما. لا تريد التفكير في ابنهما. لا تريد إلا البقاء هنا واللعب بهذا المسدس حتى تفتح الكنيسة أبوابها. تريد أن تلعب بمسدس ذلك الرجل اللطيف صاحب الأكياس الكبيرة أسفل عينيه.

تضاعف اهتمام ميليا بهينرك، حتى أنها صارت تتجاهل إرنست، فعلاً. شعرت بالأسف؛ تمنت لو لم تتصل به. جورج روزنبرج كانت من الماضي البعيد. يدها لم تذبل، حتى الوقت نفسه لم يكن مناسباً للحديث مع إرنست عن كل شيء. في الواقع لن يأتي وقت مناسب للحديث. أرادت من إرنست أن ينسى كاس، أرادت أن يبتعد عن الصبي. أدركت أنها تشعر بالعار من إرنست سبنجلر.

التفتت نحو الرجل، هينرك: حسناً، إذا سحبت الزناد الآن، هل سأطلق النار؟ نسيت ميليا ألمها ... نسيت ألم الجوع. قال لها هينرك: لا. ضحك، ثم شرح لها كيف يعمل: عليكِ أن ترفعي المقبض أولاً. رفع هينرك المقبض وأخذ إرنست يضحك ثم صوبت ميليا المسدس تجاه هينرك مجدداً وسألته: هل

سيطلق المسدس النار الآن؟ أجاب هينرك: أجل. أبقت ميليا المسدس على وضعه تجاه رأس هينرك، الرجل الذي تشعر بشيء من الانجذاب تجاهه، بل وبصراحة، بعض الإثارة كذلك، وقالت: وماذا لو أطلقت النار؟ رد هينرك بمرح: حسناً ... اطلقي ... اطلقي الآن!



الفصل الحادي والثلاثون

ميليا

1

صارت ميليا الآن امرأة في الثامنة والأربعين، محبوسة داخل عنبر فردي في مستشفى الأمراض العقلية المخصصة لاحتجاز المرضى العقليين ذوي السوابق الإجرامية. مازال أمامها بضع سنوات كي تنهي فترة عقوبتها. أفاد الأطباء بأنها "من المفترض أن تكون ميتة بالفعل" منذ فترة طويلة نظراً لحالتها الطبية الميئوس منها.

ولكن، مثلما كان يقول زوجها السابق مراراً وتكراراً، فإن النوع الثالث من الصحة ليس له أي علاقة بالبشر وأدويتهم ... وهذا ما نجحت ميليا في تحقيقه.

عاشت ميليا بفضل معجزة ... أجل، عاشت بفضل *سلامها الروحي، وليس العلاج*.

ذلك الألم الذي يسكن رحمها أو بجواره مازال هناك - يشتد في بعض الأحيان ويضعف في أخرى - ولكن ميليا عاشت واعتادت على الطريقة التي يذكرها الألم من خلالها بما فعلوه بها في مصحة جورج روزنبرج. وضعت ميليا يدها اليمنى وتحسست بها رقبتها.

"إن نسيتكِ يا جورج روزنبرج ..."

كان من المستحيل أن تنسى ميليا. قالت لنفسها: لم تذبل يدي اليمنى، متحسسة رقبتها.

بالإضافة إلى ألمها، فإن حياة السجن - بنظامها الصارم - كانت خير تذكرة لها بحياتها التي قضتها في المصحة. فالاستيقاظ بميعاد والنوم بميعاد، وتناول الطعام بميعاد، هذا غير المشاركة الإجبارية في أنشطة مختلفة على مدار اليوم لمنعها من أي شيء يقود إلى "أفكار غير متوقعة"، وكذلك المقابلات هنا وهناك مع زملائها المساجين، والانخراط في "التشوش اللفظي". مشاركة الأسرار مع سجين أو آخر كما كانت تفعل في جورج روزنبرج... كان التشابه بين الحياتين كبيراً للغاية لدرجة أنها في بعض الأحيان كانت تشعر أن سنواتها التي قضتها في المصحة كانت تعيد نفسها من جديد ... أو أنها قد عادت للماضي من جديد. لم يكن شيء بإمكانه مفاجأتها، في هذه المرحلة.

ومع ذلك، كان هناك اختلاف هام: فهذه المرة لا يوجد جومبرز.

كان مأمور السجن غير مرئي تقريباً، فميليا رأته مرة أو اثنتين: لم يكن يتدخل في أنشطة المساجين، أعجبت به فوراً. غيابه هذا كان أبرز ميزة ... بل وأفضلها.

كانت ميليا مسجونة لاتهامها بقتل رجلٍ يُدعى هينرك أوبست ليلة 29 مايو هذا العام ... رجل ضربته بالنار في رأسه.

كلما سألها أحدهم فيمَ سُجنت كانت إجابتها المباشرة: أنا متهمة بقتل رجلٍ يُدعى "هينرك أوبست" ليلة 29 مايو هذا العام ... الخ.

تلك الليلة التي قتلت فيها الرجل أيضاً قُتل فيها ابنها كاس بنفس الطريقة البشعة لدرجة أن لا أحد امتلك الجرأة ليخبرها عن ذلك. ولكن قاتل كاس بقى مجهولاً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثاني والثلاثون والأخير

ميليا وإرنست وهينرك

1

ضحكت ميليا وأنزلت المسدس. طلبه ارنست.

قال هينرك: حسناً، هيا.

رفع إرنست المسدس. قال إنه ثقيل.

قال هينرك أن كل المسدسات هكذا. وقت الحرب، اعتدت حمل مدافع أثقل من هذا المسدس خمسين مرة على الأقل.

سألته ميليا: هل شاركت في الحرب؟

أجاب: أجل.

سألت: هل قتلت أحداً؟، بينما حماسها يتزايد من هذا الموقف الفريد، وهذا الرجل اللطيف، وألم معدتها، الذي عاد من جديد - ولكن أهذا ألم الجوع أم الألم الآخر؟

قال هينرك: نعم قتلت.

قالت: حقاً؟

قال: طبعاً.

وفجأة انطلق هدير قطع رأس هينرك.

لازال إرنست يحمل المسدس. قال: خرجت الرصاصة.

قال ميليا: ماذا فعلت أيها الأحمق! لقد قتلته!

توالت صرخات ميليا. بينما استدار إرنست محاولاً الهرب بأقصى سرعة. بأقصى سرعة تسمح بها قدمه اليمنى المضحكة.

صرخت ميليا: "يا ابن الساقطة!"

ثم هدأت ميليا. المسدس ملقى على الأرض بينما فر إرنست.

خفضت رأسها ناظرة للرجل ذو الرأس المهشم. قالت: غبي، طائش! إرنست، غبي، مجنون!

فكرت محاولة إدراك ما يتوجب عليها فعله. سيأتي الناس بعد قليل، تصورت ميليا أنه لابد أن أحدهم سمع صوت الرصاص، لا توجد منازل في الجوار، ولكن مؤكد سمع شخص ما صوت الرصاص. على الأقل في الكنيسة، لابد أنهم سمعوا.

وصلت مسامعها جلبة قادمة من الكنيسة. تصاعدت أصوات الجلبة القادمة من الكنيسة؛ لكن، سرعان ما تلاشت، ولم يظهر أحد. تساءلت ميليا: ماذا يجري؟ لم يظهر أحد.

مر وقت طويل ولم يظهر أحدٌ بعد. ألم يسمع أحد؟ ربما يشعرون بالخوف داخل الكنيسة.

لم تتحرك ميليا. مالت، رفعت المسدس، أمسكت به، ثم أخذت في التوجه نحو باب الكنيسة الأمامي. لا يزال الليل مخيماً على المكان، ربما هناك خيط من نور ظهر الآن في السماء. كم الساعة الآن؟ ميليا لا تعرف.

هي الآن أمام باب الكنيسة. ذراعاها متدليان إلى جنبيها، لطخ الدم ثيابها وتمسك مسدساً في يدها اليمنى، فوهته موجهة نحو الأرض. بمقدورها الآن أن تقول أن ألمها المعتاد لم يعد مزعجاً، ولكن جوعها شديد، على نحو أكثر سوءاً - كل ما يشغلها الآن هو الطعام. الخبز. اللبن. قد تشرق الشمس، ميليا تكاد تفقد وعيها، لكنها تقاوم. أخيراً، وصلت إلى مسامعها أصوات جلبة، قادمة من داخل الكنيسة، خلف الباب الرئيسي؛ شخص ما على الجانب الآخر من الباب، على بعد أقل من مترين. هدأ جوعها، ربما حتى نسيته.

صوت باب يفتح، قليلاً، بالكاد فرجة،لترى ميليا أعيناً تحملق فيها، خائفة، مترقبة. هذا فوق احتمالها - ضغطت بيدها اليمنى المتوترة على المسدس، لكنها كانت فعلاً تريد أن تغيب عن الوعي. الأعين لا زالت تراقبها، ومازال الباب موارباً. عليها التحدث مع أياً من كان على الجانب الآخر من باب الكنيسة. حاولت لململة شتات نفسها. استدعت أكثر نبرات صوتها صرامة.

قالت: "قتلت رجلاً" ، "*الآن* هل ستسمحون لي بالدخول؟"


https://telegram.me/maktabatbaghdad



سطع اسم جونسالو إم. تفاريس في المشهد الأدبي البرتغالي لتمتعه بخيال خصب أصيل تجاوز كل حدود الخيال التقليدي. هذا إضافة إلى لغته الخاصة، التي جمعت بين جرأة الصك وبراعة استخدام العامية، مما يدفعني للقول، ودون أي قدر من المبالغة - مع كامل الاحترام للشباب من روائيي البرتغال اليوم - أن جونسالو إم. تفاريس مرحلة يقف عندها الزمن، هناك مرحلة سبقته، وأخرى تلته... تنبأت أنه سيحصل على نوبل خلال ثلاثين عاماً، إن لم يكن قبل ذلك، وأنا على ثقة من نبوءتي. أسفي فقط على أنني لن أكون على قيد الحياة لأمنحه أحضان التهنئة".

جوزيه ساراماجو، الحائز على جائزة نوبل

تدور حول غياب السعادة، في فراغ امتلأ مكراً بركود الثروة أو الجنون، هكذا نسج جونسالو إم. تفاريس روايته البديعة أورشليم، كتاب يستدعي فوراً شبح كافكا، سينما ألمانيا التعبيرية، وكانافا أنيلم كييفير..."

- هيلينا فاسكونسيلوس

يتسم أدب جونسالو إم. تافاريس أنه ثوري، ولا يسمح لك أن تبقى دون اكتراث. على العكس، إنه يؤلمنا ويربكنا. تفاريس بارع في صدمة القارئ. "

- جوزيه كاستيلو، إبسيلون

كتابته سريالية، مرحة، شعرية، عميقة، درامية، صادمة، قنبلة صغيرة تدفع خارج الحدود المعتادة، الأنماط السائدة. "

- جيوليا لاسيني

يوما ما، عندما يكتب التاريخ الأدبي للسنوات الأولى من هذا القرن في البرتغال، سيحتل أدب جونسالو إم. تفاريس مكانة رفيعة..."

- جوزيه ماريو سيلفا



مصر العربية للنشر والتوزيع
19 شارع إسلام - حمامات القبة - الزيتون
القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفاكس: 22562268 02 2+
masrelarabia@hotmail.com



توزيع:
مكتبة أطياف
1 شارع البستان السعيدي - متفرع من محمد صبري أبو علم
وسط البلد (عابدين) - القاهرة
محمول 01020097171